ISSN: 2090 – 0449 Online
Type of License: CC BY-NC-ND
DOAJ API documentation: 359c88a5cecf4f7faa1c2f538c431346

صورة المرأة في كتب الرحلة في عصر الحضارة الإسلامية

أ. د. أحمد علي السري

أستاذ التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية
كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية
جامعة الإمارات – دولة الإمارات العربية المتحدة

مُلَخّصْ

تنطوي كتب الرحلة في التراث العربي الإسلامي على مشاهدات متنوعة للنساء تستحق العرض والدراسة، لاسيما وأن صور المرأة في التاريخ تُعَدّ أبرز المجسات الثقافية المعاصرة لمعرفة البنية الذهنية للمجتمعات ذات الصلة بدور المرأة ووضعها في المجتمع قديمًا وحديثًا. وتُعَدّ صور المرأة في كتب الرحلة كاشفة ليس فقط لثقافة الأقوام التي مر بها الرحَّالة، بل لذهنية الرحَّالة ووعيه الثقافي أيضًا. ويهدف هذا البحث إلى عرض صور المرأة التي وردت في كتب الرحالة المسلمين وإبراز المكونات الثقافية في أصقاع مختلفة من العالم القديم، تمتد بين الصين شرقًا وصقلية غربًا، وذلك في مرحلة من مراحل التاريخ الإنساني تقع بين القرنين الثالث والسادس الهجريين، التاسع والثاني عشر الميلاديين، وهي فترة ظهرت فيها كتب رحلات عربية، تغطي معظم جهات العالم المعروف يومئذ. ويؤمل أن يسهم البحث في إبراز صور العلاقات الإنسانية في تلك الفترة، كما دونتها كتب الرحلة، وسيتولى البحث تحليل تلك الصور في ضوء الثقافة السائدة يومئذ والطموحات المعاصرة لعلاقات إنسانية أرقى بين الرجل والمرأة.

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث: ٢١ نوفمبر ٢٠١٥
تاريخ قبول النشر: ٧ فبراير ٢٠١٦

كلمات مفتاحية:

ابن فضلان، سليمان التاجر، ابن جبير، البغدادي، كتاب الاعتبار

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

أحمد علي السري. "صورة المرأة في كتب الرحلة في عصر الحضارة الإسلامية".- دورية كان التاريخية.- العدد الواحد والثلاثون؛ مارس ٢٠١٦. ص٩ – ٢٧.

مُقَدِّمَةْ

تنطوي كتب الرحلة في التراث العربي الإسلامي على مشاهدات متنوعة للنساء تستحق العرض والدراسة، لاسيما وأن صور المرأة في التاريخ تُعَدّ أبرز المجسات الثقافية المعاصرة لمعرفة البنية الذهنية للمجتمعات ذات الصلة بصور المرأة قديمًا وحديثًا. وتُعَدّ صور المرأة في كتب الرحلة كاشفة ليس فقط لثقافة الأقوام التي مر بها الرحَّالة، بل لذهنية الرحَّالة ووعيه الثقافي أيضًا[١]. ومع أن ما تجود به كتب الرحلة من صور يبقى جزئيًا ولحظيًا بل ومحكومًا بوعي الرحَّالة وثقافته وبمصادفات طرق الرحلة، إلا أن كل هذا لا ينزع عن تلك الصور بعدها الاجتماعي ولا يبخسها حقها في الإفادة الثقافية، فصورة الإنسان الملتقطة بدهشة الغريب والعجيب والممتع تبقى لحظة ثقافية فارقة تشهد على أحوال وجودية للإنسان في الكون راصدًا ومرصودًا. ومع ذلك تخضع نصوص كتب الرحلة منهجيا كغيرها من النصوص للفحص والتأمل وتتبع نزعة المبالغة ورغبة الإدهاش في الوصف، لاسيما وقد انتبه القدماء لما يمكن أن تشتمل عليه روايات الرحَّالة من مبالغات، فقال الجاحظ (ت:٢٥٥هـ): "وذكر بعض الحكماء أعاجيب البحر وتزيد البحريين، فقال: البحر كثير العجائب، وأهله أصحاب زوائد، فأفسدوا بقليل الكذب كثير الصدق وأدخلوا ما لا يكون في باب ما قد يكاد يكون، فجعلوا تصديق الناس لهم في غرائب الأحاديث سلَّما إلى ادعاء المحال"،[٢] ومع أن هذا القول لا يخص أدب الرحلة المكتوب الذي لم يتألق بعد في زمن الجاحظ، بل المتداول الشفهي، إلا أنه يبقى دعوة عامة للحذر من مبالغات أهل البحر جديرة بالتوقير، رغم الإشارة إلى قلتها، والبحريون مصطلح يفيد السفر البعيد، ولا يقتصر على البحر فقط.

وأحسب أن أقلام الباحثين لم تخض بعد في صور المرأة في كتب الرحلة، وهو ما نستدركه في هذا البحث بهدف التعرف على صور

المرأة وإبراز المكونات الثقافية في أصقاع مختلفة من العالم القديم، في مرحلة من مراحل التاريخ الاجتماعي الإنساني تقع بين القرنين الثالث والسادس الهجريين، التاسع والثاني عشر الميلاديين، وهي فترة ظهرت فيها كتب رحلات تغطي معظم جهات العالم المعروف يومئذ.

وبين أيدينا كتب الرحلات الأولى المهمة ذائعة الصيت التي تم إخراجها وتحقيقها، ومنها رحلات لرجال لم يعرف بعضهم إلا بكتاب رحلته فقط ومنهم سليمان التاجر وابن وهب القرشي، وهما من رحَّالة القرن الثالث الهجري، واشتملت الرحلتان على أوصاف للهند والصين وجزر المحيط الهندي، وقد تم إخراج الرحلتين في كتاب أطلق عليه أحد المحققين "رحلة السيرافي".[٣] وهناك رحلة ابن فضلان المعروفة بـ"رسالة ابن فضلان، في وصف بلاد الترك والخزر والروس والصقالبة " وهي أول رحلة مكتوبة بصورة مستقلة يمكن الوثوق بها كتبت في مطالع القرن الرابع الهجري، ثم جاء الشاعر الجواب أبو دُلَف الينبوعي الخزرجي، وهو من رجال القرن الرابع الهجري، فكتب عن رحلته من بخارى إلى بلاد الصين عبر بلاد القبائل التركية في وسط آسيا، فقدم صورا للمرأة أدهشته فساهمت في رسم صورة أشمل للمرأة في تلك الأصقاع.

وقد عَسُر على الباحثين تقديم سير ضافية موثوقة لمن ذكر آنفا لأنهم لم يعرفوا إلا بكتاباتهم تلك، لكن سيراً ضافية يمكن تقديمها لرحَّالة القرنين الخامس والسادس الهجريين، ومنهم ناصر خسرو الذي ارتحل في القرن الخامس الهجري (٣٩٤- ٤٨١/ ١٠٠٣-١٠٨٨) وكتب مشاهدات رحلته التي خرجت إلينا بعنوان" سفر نامة .. رحلة ناصر خسرو إلى لبنان وفلسطين ومصر والجزيرة العربية في القرن الخامس الهجري"، نقلها إلى العربية يحيى الخشاب وقدم فيها سيرة مفصلة لناصر خسرو وزمنه وعقيدته ومؤلفاته[٤]. وقد غشيته حالات اضطراب روحي وفكري دفعته للرحلة إلى الحجاز بحثًا عن يقين وسكون روحي. ورغم طول زمن رحلة ناصر خسروا التي استغرقت سبع سنوات مر خلالها في حواضر ومدن تعج فيها الحركة البشرية والأسواق مثل مدن العراق وبلاد الجزيرة العربية وبلاد الشام ومصر، إلا أنه لم يسجل أية صور للمرأة تستحق التوقف عندها، باستثناء أخبار نزرة مقتضبة رواها سماعا، منها أنه في مدينة تنيس بمصر سمع عن علة صرع تصيب النساء، فقال: "وتصيب النساء هناك أحيانًا علة كالصرع، فيصحن مرتين أو ثلاثا، ثم يعدن بعد ذلك إلى صوابهن، وكنت قد سمعت بخراسان عن جزيرة تموء فيها النساء كالقطط" ، ولم يحاول تفسير ذلك أو يورد له سببًا.

وأثناء وصفه لقصر السلطان في القاهرة ذكر حجم وسعة القصر وتساءل عن عدد الخدم والنساء والجواري فيه، كما ذكر بالسماع عن امرأة تاجرة في القاهرة تملك خمسة آلاف قدر من النحاس الدمشقي، وأنها كانت تؤجر هذه القدور لجلب الماء من النيل. ولما كان في البصرة في طريق عودته إلى خراسان، سمع عن امرأة ثرية تملك مئات المراكب ولها عقل وحكمة" [٥]. كما أن ندرة صور المرأة تنطبق على رحلة الغرناطي، أبو حامد الأندلسي (٤٧٣-٥٦٥هـ/ ١٠٨٠-١١٧٠م) الذي أمضى ثلاثين عامًا في أواسط آسيا وأوربا ودون ذكرياته فيما بعد في كتاب سُمي "تحفة الألباب ونخبة الإعجاب"، أو "رحلة الغرناطي"، ولم يكثر من تقديم صور للمرأة، باستثناء خبرين يتعلق الأول بطول امرأة وعظم قوتها وأنها قتلت زوجها وهي تضمه إلى صدرها، والثاني يخبرنا عن شراء الرحَّالة شخصيًا جاريتين لنفسه من سوق العبيد بثمن بخس وكن في أعمار خمس عشرة سنة وثماني سنين والأخيرة أنجب منها ولدًا ومات.[٦] لكن مشاهداته فائقة الأهمية عند المقارنة بين مشاهداته ومشاهدات ابن فضلان قبله بما يناهز القرن [وسنشير إليها لاحقًا].

ثم إن صورًا متنوعة للمرأة تظهر ثانية في رحلة ابن جبير الأندلسي (٥٤٠-٦١٤هـ/١١٤٥-١٢١٧م) الذي تحتفي كتب التراجم بسيرته وتمدح كتابه المعروف بـ"رحلة ابن جبير"، وقد غطى بأوصافه مجالاً جغرافيًا ضخمًا بدأه من مصر مرورًا ببلاد الحجاز والعراق والشام ثم صقلية. وتتميز جدًا صور المرأة في "رحلة الطبيب والعالم الموسوعي عبد اللطيف البغدادي في مصر"، (٥٥٧-٦٢٦هـ/١٢٣١-١٢٦٢م) وعنوانها الأصلي "كتاب الإفادة والاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر"، والشيء نفسه يمكن قوله على صور المرأة في "كتاب الاعتبار" لأسامة بن منقذ (٤٨٨-٥٨٤هـ/ ١٠٩٥-١١٨٨م)، وهو كتاب يصنفه جمهور الدارسين بأنه كتاب رحلة في ثوب سيرة ذاتية لأسامة بن منقذ في بلاد الشام. وكان الأمير أسامة بن منقذ، من أمراء بيت الحكم في قلعة شيزر[٧] (شمال غرب حماة) بسوريا، أديبًا ومحاربًا ورحَّالة، وتميز حضور المرأة عنده بملحمة الدفاع عن بلاد الشام زمن الحروب الصليبية.. ثم إن ابن جبير وابن منقذ والبغدادي متعاصرون لكنهم قدموا مشاهدات مختلفة لبلاد الشام ومصر تعلقت باللحظة التاريخية التي صادفها كل منهم وبزاوية المشاهدة التي اعتمدها كل منهم لنفسه.

وقد تم إهمال رحلة سلام الترجمان الذي عاش في القرن الثالث الهجري وعاصر الخليفة العباسي الواثق بالله (٢٢٧-٢٣٢هـ/٨٤١-٨٤٦م) الذي كلفه القيام برحلة إلى أواسط آسيا ليخبره عن حال سد يأجوج ويأجوج، وتُعَدّ رحلة سلام الترجمان أقدم رحلة جاء عنها نص مكتوب ورد في كتاب المسالك والممالك لابن خردذابه المعاصر لسلام الترجمان،[٨] لكنه لم يحتو على ذكر للنساء، كما تم إهمال كتاب "عجائب الهند" أيضًا، لبزرك الرامهرمزي، المؤلف في القرن الرابع الهجري، لأن معظم مادة الكتاب التي دونها المؤلف تقوم على الرواية لا المشاهدة، ولأن أخبار النساء فيه لا تزيد عن ثلاثة أخبار منها خبران يدخلان مدخل الأسطورة والخرافة، وهما خبر جزيرة النساء، وخبر البشر الهجين من تناكح الإنسان والحيوان، وهناك خبر واحد واقعي يروي قصة فتاة شابة راودها عن نفسها ملاح في مركب السفر إلى الهند فأبت، ثم أخضعها الرجل عنوة لرغبته في هيجان للبحر فجائي، جعل باقي الركاب ينظرون لفعلته ولا يستطيعون له دفعًا.[٩]

ولكل كتاب من الكتب المشار إليها زمنه الخاص به، كما أن لكل رحَّالة عقله وزاوية مشاهداته. وبما أن مشاهدة الرحَّالة المسلمين قد

تمت في مجالين جغرافيين هما المجال الإسلامي والمجال غير الإسلامي فقد بدا مستحسنًا تقسيم المشاهدات المتعلقة بالمرأة إلى مجالين كي يمكن عقد مقارنة بين مجالي المشاهدة بعدئذ.

أولاً: صور المرأة في مشاهدات الرحَّالة في بلدان الترك والهند والصين

نود البدء بمشاهدات الرحَّالة في البلاد غير الإسلامية لتوقع أن ترد صورًا للنساء غير مألوفة في ثقافات الهند والصين وأواسط آسيا، وسنستعرض تلك الصور بدءًا بالأقدم منها لبيان المتغير من الأحوال إن وجدت وسنحت فرصة للمقارنة.

١/١- صور المرأة في رحلتي سليمان التاجر وابن وهب القرشي:

كان سليمان التاجر تاجرًا كما يكشف اسمه، وكل ما يعرف عنه أنه تاجر عربي تنقل بين الموانئ التجارية واستقر في سيراف التي كانت يومئذ ميناء تجاريًا نشطًا على الشط الفارسي للخليج العربي، ولذلك فهو يعرف أيضًا بسليمان السيرافي. ورغم غياب أية أخبار عن سيرة الرجل إلا أن الثابت أنه ألف كتاب رحلته سنة ٢٣٧ للهجرة، ورغم عمله في التجارة إلا أنه يظهر في الكتاب على حظ من ثقافة انعكست في لغة الكتاب وطبيعة المشاهدات التي دونها. وكان ابن وهب القرشي سائحًا ثريًا يبحث عن أسباب القرب من ملك الصين، وعلى قلة صور المرأة الواردة في مشاهداته إلا أنها مميزة لصلتها العميقة بثقافة الهند والصين. ويرجع الجمع بين رحلتي سليمان التاجر وابن وهب القرشي إلى صلة أبي زيد السيرافي بالرحلتين، وأبو زيد من رجال القرن الرابع الهجري، شغف بأخبار الرحلات فتلقف ما كتبه سليمان وابن وهب وقام بضم ما كتبا في مخطوط واحد ووحيد تحتفظ به مكتبة باريس الأهلية، وبين أيدينا نص الرحلتين من إخراج المحقق عبد الله الحبشي سماه "رحلة السيرافي"[١٠]، والمقصود رحلة سليمان التاجر لغلبة نص سليمان الأصلي على نص ابن وهب، ثم لأن معظم أخبار النساء المستعرضة هنا وردت في رحلة سليمان التاجر، وهي رحلة بَحْرية قصدت الهند والصين. بدأها من سيراف مبحرًا صوب مسقط في عمان، ومن هناك عبر المحيط الهندي ومر بسواحل الملبار في الهند ثم أبحر صوب سرنديب (سيريلانكا حاليًا)، ومنها إلى الصين.

ويظهر صاحب الرحلة في هذا الكتاب بؤرة مشاهدة فاحصة جمعت بين تجارب التجارة وشؤون الحكم وظواهر المجتمع في كل من الصين والهند، ومن الواضح أن معلومات الكتاب خلاصة مشاهدات طويلة ورحلات متكررة تمكن من خلالها سليمان التعرف على عادات أهل الصين والهند وقوانينهم، وهو ما يجعل مشاهدات الرجل قيمة للغاية لاسيما وأن بعض العادات المذكورة هنا لا تزال قائمة إلى اليوم، وبعضها اندثر بفعل التثاقف المعاصر.

ومن الغريب اللافت الذي رصده سليمان متعلقا بالمرأة، ذكره لامرأة تملك عدد ألف وتسعمائة من الجزر في بحر الهند، وان هذه الجزر عامرة بالناس والنارجيل[١١]، وقد نلحظ في هذا الوصف مبالغة في عدد الجزر، لكن الشاهد هو إثبات ثراء امرأة، وهو الملمح الثقافي المقصود بالوصف. وذكر أن الرجل في الجزر القريبة من سرنديب (سيريلانكا حاليًا) إن أراد "أن يتزوج لم يزوج إلا بقحف رأس رجل من أعدائهم، فإذا قتل اثنين زوج اثنتين، وكذلك إذا قتل خمسين زوج خمسين امرأة بخمسين قحفا"، وذكر سببًا لذلك هو كثرة أعدائهم[١٢]، واندهش سليمان لعلاقة نساء سرنديب بطقوس الموت فذكر أنه "إذا مات الملك ببلاد سرنديب صُيِّر على عجلة قريبًا من الأرض وعلق في مؤخرها مستلقيًا على قفاه يجر شعر رأسه التراب عن الأرض وامرأة بيدها مكنسة تحثوا التراب على رأسه "وتتفوه بعظات عن الحياة والموت .. وربما أحرق الملك فتدخل نساؤه النار فيحترقن معه وإن شئن لم يفعلن"[١٣]، أي أن الموت مع الزوج حرقا أمر اختياري وليس لازما كما شاع عن هذا الطقس تحديدًا.

وفي جزيرة تلي الجزر المملوكة لتلك المرأة سماها لنجبالوس، وهي جزر النيكابور الحالية، رأى سليمان الرجال والنساء عراة غير أن على عورة المرأة سترًا من ورق الشجر، وقد شاهدهم وهم يأتون بقوارب صغيرة إلى المراكب المارة فيبيعون ويشترون.[١٤] وفي موضع آخر تحدث سليمان عن جزيرة لنج يالوس، وأنها تقع بعد بحر هركند وذكر أنهم " قوم لا يلبسون الثياب" ثم ذكر رواية أن نساء هذه الجزيرة لا يشاهدن وأن الرجال فقط يخرجون إليهم بزواريق للبيع والشراء.[١٥] ولعل في الأمر خلطًا بين جزيرة وأخرى. لكن المشترك بين الوصفين هو العري، أما المختلف فهي المشاهدة، ففي الوصف الأول شاهد سليمان عري النساء وهو مما يستوقف نظر التاجر المسلم، وقد وصفه بوضوح، وفي المرة الثانية يروي عن غيره خبر عري النساء دون مشاهدة.

وفي حديثه عن عادات أهل الصين طعامهم وشرابهم وملبسهم ونظافتهم استوقف نظر سليمان أن نساء الصين، " يكشفن رؤوسهن ويجعلن فيها الأمشاط، فربما كان في رأس المرأة عشرون مشطا من العاج وغير ذلك والرجال يغطون رؤوسهم بشيء يشبه القلانس"[١٦]، وما تزال هذه الصورة قائمة إلى اليوم، لكن يبدو أن عادة استعمال الأمشاط للإمساك بالشعر أو تزيينه على هيئة ما جميلة، لم يكن قد شاع في سواحل الخليج العربي وبغداد، لستر النساء شعورهن في الغالب. وقد وصف سليمان الصورة دون تعليق، لكننا نعرف اليوم أنها من الزينة المستعملة وقد شاعت في كل مكان، فالنساء يصففن شعورهن باستخدام أمشاط مختلفة الألوان والأشكال للحصول على هيئة الشعر المطلوبة، ولا يتصور غير ذلك في زمن مشاهدات سليمان التاجر.

وفي الهند تعجب سليمان من ممالكها الساحلية وقوتها وثروتها فذكر مملكة الطافق وقال عن نسائها "ونساؤهم بيض أجمل نساء الهند"[١٧]، وفي هذه الملاحظة انكشاف لمعايير الجمال في ثقافة سليمان التاجر، وأن البياض جزء من صورة الجميل، وهي قيمة في ثقافة الجمال العربية ما تزال مستمرة إلى اليوم. وفي المقارنة بين عادات الهند والصين مما يتصل بالمرأة يقول سليمان" وأهل الهند والصين إذا أرادوا التزويج تهانوا بينهم ثم تهادوا ثم يشهرون التزويج بالصنوج والطبول. وهديتهم من المال على قدر الإمكان."[١٨] وفي الهند

يذكر سليمان أخبارًا لها صلة بقيم المجتمع الأخلاقية المتصلة بعلاقة المرأة والرجل فيقول: "إذا أحضر الرجل منهم امرأة فبغت فعلها وعلى الباغي بها القتل في جميع بلاد الهند، وإن زنى رجل بامرأة، اغتصبها نفسها، قتل الرجل وحده، فإن فجر بامرأة على رضىً منها قتلا جميعا".[١٩] وعن عادات أهل الصين والهند المتصلة بمعاشرة النساء يقول: "ولا يغتسل الهند ولا الصين من جنابة.. والهند لا يأتون النساء في الحيض ويخرجونهن عن منازلهم تقززًا منهن والصين يأتونهن في المحيض ولا يخرجونهن".[٢٠]

ومما ألحقه أبو زيد السيرافي مما سمعه عن أهل الصين إخباره عن "ديوان الزواني"، والحديث عن نساء لا يرغبن في الإحصان ويرغبن في الزنا، وهي مهنة ممارسة البغاء، ومن الواضح أنها كانت مهنة مربحة، لذلك نُظِّمت ومنحت المرأة ترخيصًا وهو "خيط فيه خاتم نحاس مطبوع بخاتم الملك" ثم تسجل رسميًا في "ديوان الزواني"، وتلزم بدفع مبلغ سنوي لبيت المال. ولأن الزنا غير مقبول وتنكره كل الثقافات تقريبًا، إلا أن هذه التي ترغب في امتهانه يزول عنها الإنكار بعد حصولها على الترخيص، ولا يجوز لهن التزوج بعد ذلك ومَنْ تزوجها فعليه القتل. وقد ذكر لهذا الترخيص الرسمي سببًا، كما وصف طرق عرض النساء لأنفسهن ومن هم زبائنهن فقال: "فهذه الطبقة من النساء يرحن بالعشيات عليهن ألوان الثياب من غير استتار فيصرن إلى من طرا إلى تلك البلاد من الغرباء من أهل الفسق والفساد وأهل الصين، فيقمن عندهم وينصرفن بالغدوات، ونحمد الله على ما طهرنا به من هذه الفتن".[٢١]

والخبر عن ديوان الزواني من زيادات أبي زيد السيرافي على رحلة سليمان التاجر، ولذلك جاءت صياغته مختلفة ومنه الفقرة الأخيرة التي فيها "حمدا لله على الطهارة"، وهي لغة تختلف كلية عن لغة سليمان التاجر الذي وصف مشاهداته بحياد ملفت ولم يلحق بأي وصف مدحًا ولا ذمًا، وهي حالة تستوقف النظر وتحض على التقدير، ولسنا نجد لها تبريرًا سوى الرحلة والتجارة، ومعاشرة الثقافات، وكل ذلك يصقل الوعي ويهيؤه لاحترام ثقافات الآخرين. أما السيرافي أبو زيد فلم يرتحل بل سمع أخبار البحريين في بيئته الثقافية وليس غريبًا أن تصدمه أخبار ديوان الزواني فيشكر الله على تطهير المسلمين من تلك الفتن.

أما ما ورد من مشاهدات لابن وهب القرشي التي وردت رحلته مروية بقلم أبي زيد السيرافي، متصلاً بالمرأة فخبر واحد فقط لكنه يكشف لونًا مشهورًا من ثقافة الهند يومئذ تمارس فيه الفتاة البغاء لصالح المعبد، وهو حديث مشهور في الثقافة الهندية، ويُعَدّ تسجيله في كتاب رحلة عربي في ذلك الوقت سابقة معرفية لعلها الأقدم في الثقافة العربية. يذكر ابن وهب "وللهند ضروب من الشرائع يتقربون بها فيما زعموا إلى خالقهم جل الله وعز عما يقول الظالمون علوًا كبيرًا، منها أن الرجل يبتني في طرقهم الخان للسابلة ويقيم فيه بقالا يبتاع المجتازون منه حاجتهم، ويقيم في الخان فاجرة من نساء الهند يجرئ عليها لينال منها المجتازون، وذلك عندهم مما يثابون عليه، وبالهند قحاب يعرفون بـ"قحاب البد"، والسبب فيه أن المرأة إذا نذرت نذرًا وولد لها جارية جميلة أتت بها البد وهو الصنم الذي يعبدونه، فجعلتها له ثم اتخذت لها في السوق بيتا وعلقت عليه سائر الملل ممن يتجاوز في دينه، فتمكن من نفسها بأجرة معلومة، وكلما اجتمع لها شيء من ذلك دفعته إلى سدنة الصنم ليصرف في عمارة الهيكل"[٢٢]. وما سماه الرحَّالة هنا " قحاب البد" يجرى تداوله في الزمن الحديث بمصطلح " البغاء المقدس" أو "عاهرات المعبد".

٢/١- صور المرأة في رحلة ابن فضلان:

كان ابن فضلان[٢٣] فقيهًا تقيًا في بلاط الخليفة العباسي المقتدر بالله (٢٢٧-٢٣٢هـ/٨٤١-٨٤٦م) وقع عليه الاختيار ليرافق وفد الخليفة الديبلوماسي إلى ملك البلغار أو الصقالبة[٢٤]، وهي دولة قامت في الحوض الأوسط من نهر الفولجا (إتل قديمًا)، وأسست عاصمتها في الجانب الشرقي من نهر الفولجا الأوسط، وكانت فيما يبدو عاصمة تجارية نشطة يفد إليها تجار مملكة الخزر وتجار الروس وكذلك المسلمين[٢٥]، وأطلالها ما تزال قائمة بالقرب من مدينة قازان اليوم جنوب موسكو. وكان ملك البلغار قد أرسل رسالة إلى الخليفة المقتدر بالله العباسي لطلب العون في مواجهة ملك الخزر، ويبدو من الرسالة أيضا أنه كان قريب عهد بالإسلام[٢٦] وأنه وقومه يريد التفقه في الدين وتوطيد العلاقة مع الخلافة ليتقوى بها في مواجهة مملكة الخزر[٢٧].

كتب ابن فضلان رسالته في الربع الأول من القرن الرابع الهجري، الثلث الأول من العاشر الميلادي، بعد عودته من رحلته الديبلوماسية التي انطلقت من مدينة السلام (بغداد) ومرت ببلاد إيران ووصلت إلى نهر جيحون وبخارى ودخلت بلاد الجرجانية وخوارزم، ثم بلاد الترك ثم وصلت إلى بلاد البلغار. لم يلتفت ابن فضلان إلى بلاد إيران الواسعة وما بين النهرين فهذه مألوفة ومعروفة، بل اختار أن يبدأ تسجيل مشاهداته من بلاد العجم (خوارزم والجرجانية تحديدًا)، فمن خوارزم يبدأ ابن فضلان أوصافه الممتعة، لبلاد العجم (خوارزم) ثم يخرج من خوارزم صوب الشمال ويدخل بلاد الترك في طريقه إلى مملكة البلغار.

ومن صور المرأة التي أدهشته أن المرأة عند بدو الأتراك "الغزية" لا تستر شيئًا من جسدها وهي جزء من صورة لعامة أفراد هذه القبيلة رسمها ابن فضلان قائلاً: " وهم كالحمير الضالة لا يدينون لله بدين ولا يرجعون إلى عقل ولا يعبدون شيئًا، ويسمون كبراءهم أربابًا، وهم لا يستنجون من غائط ولا بول ولا يغتسلون من جنابة ولا غير ذلك، ونساءهم لا تستتر من رجالهم ولا من غيرهم، وأن المرأة عندهم لا تستر شيئًا من بدنها عن أحد من الناس"[٢٨]. ثم ذكر أنهم نزلوا يومًا على رجل من هؤلاء وكانت امرأة الرجل تجلس معهم، وتحدثهم وفي أثناء ذلك "كشفت فرجها وحكته" وهم ينظرون فستروا أوجههم واستغفروا الله، فضحك زوجها وقال "تكشفه بحضرتكم فترونه وتصونه، فلا يوصل إليه، خير من أن تغطيه وتمكن منه"[٢٩]. غير أنه يشهد لهم مع ذلك بأنهم لا يعرفون الزنا، ومن فعل ذلك شقوه

نصفين وذلك بإدناء فرعي شجرتين يربط بهما ثم يترك الفرعان ليعودًا إلى قوامهما فينشق الزاني نصفين[٣٠]. كما ذكر عادات الزواج عندهم وقال "ورسوم تزويجهم هو أن يخطب الواحد منهم إلى الآخر بعض حرمه :إما ابنته أو أخته أو بعض من يملك أمره على كذا وكذا ثوب خوارزمي، فإذا وافقه حملها إليه وربما كان المهر جمالاً أو دوابًا أو غير ذلك، وليس يصل الواحد إلى امرأته حتى يوفي الصداق الذي قد وافق وليها عليه فإذا وفاه إياه جاء غير محتشم حتى يدخل إلى المنزل الذي هي فيه، فيأخذها بحضرة أبيها وأمها وإخوتها فلا يمنعونه من ذلك"[٣١] (..). وذكر أن من عاداتهم أيضًا أن الولد في حال موت أبيه يتزوج امرأة أبيه ما لم تكن أمه.[٣٢]

بعد سبعين يومًا من مغادرة الجرجانية وصل ابن فضلان إلى مقصده، بلاد الصقالبة، وهي بلاد البلغار، فاستقبلوا على أحسن وجه، ومن صور المرأة التي وقف عليها ابن فضلان واستحقت انتباهه، حضور زوجة ملك البلغار مع وصيفاتها طقس استقبال وفد الخلافة، وعلق على ذلك بأن تلك عادتهم وهذه سنتهم وزيهم. وبعد تسلم زوجة الملك للهدايا من الوفد نثرت عليها النساء الدراهم ثم انصرفوا من المجلس.[٣٣] لكن أكثر الصور إدهاشًا لابن فضلان رؤيته للنساء والرجال يغتسلون عراة في النهر، ومع ذلك فهم "لا يزنون بوجه ولا سبب" ومن زنى منهم رجل أو امرأة أوثقوه بالحديد ثم قطعوه بالفأس من رقبته إلى فخذيه.. ثم يعلق كل قطعة منه ومنها على شجر".[٣٤] وذكر ابن فضلان أنه حاول جهده إقناع النساء بالتستر من الرجال في السباحة، فما قدر على ذلك. ولعل هؤلاء كانوا من مسلمي البلغار لحرص ابن فضلان على تسترهم، ولعلهم من غير المسلمين وأراد أن يقدم لهم نصحًا، لكنها تبقى ملاحظة مهمة على حالة ثقافية ضاربة في القدم وما تزال تجلياتها حاضرة في الثقافة الأوروبية إلى اليوم رغم تبدل أشكال النظر إلى جسد المرأة من يومئذ وفي عصرنا. وفي مشاهدات ابن فضلان هذه وربطه بين عدم ستر المرأة شيئًا من جسدها وانعدام الزنا إسقاط ثقافي مهم، وله صلة بالخيال الجنسي المتصل بجسد المرأة، فجوهر الثقافة الإسلامية كما رسخت في الأذهان تقوم على عزل مجالي الرجل والمرأة سدًا للذريعة ودفعًا للفتنة، وهي حال ما تزال قائمة إلى اليوم، بينما يجد ابن فضلان جسد المرأة وعورتها متاحين للنظر، ويشيد بكون الفاحشة في العموم لا تقع رغم ذلك.

وفي وصف آخر للنساء يبرز الفوارق الثقافية المتصلة بأدوار النساء، وصف أبن فضلان عادات بلاد البلغار عند الموت ومنها أن النساء لا يبكين على الميت بل الرجال، وأن أرملة المتوفى لا تتزوج ثانية إلا بعد مرور سنتين.[٣٥] لكن أغرب الصور التي صادفت ابن فضلان هي طقوس دفن الميت عند قوم من التجار كانوا يفدون إلى بلاد البلغار عرفوا بالروسية، "ورأيت الروسية وقد وافوا في تجارتهم، ونزلوا على نهر إتل".[٣٦] في مشاهداته للروسية كما رآهم تجارًا في بلاد البلغار، ومنها تجارة العبيد والجواري، ذكر ابن فضلان أن الروسية يسكنون جماعات في بيت واحد وأنهم لذلك يطؤون جواريهم دون ستر من بعضهم، وربما دخل تاجر ليشتري جارية محددة فوجدها تحت سيدها فلا يزول عنها حتى يقضي وطره منها.[٣٧]

وأغرب وصف قدمه ابن فضلان يتعلق بطقوس الموت للرؤساء وكبار القوم عند الروسية، وعلاقة المرأة بطقوس الموت تلك. فحين يموت أحد كبار القوم، يدفن هذا الميت أولاً في قبر احتياطي لمدة عشرة أيام، يتم خلالها تجهيز ثياب الموت، وشرب النبيذ من ثلث مال المتوفى، وتسأل الجواري ويسأل الغلمان إن كان أحدهم يريد الموت معه، وفي حالة الميت الكبير الذي يصفه هنا ابن فضلان فإن إحدى جواريه أعلنت رغبتها في أن تموت معه، ولا يجوز لها التراجع قط، ثم تأتي طقوس متعلقة بالجارية والدفن، فأما الجارية التي ستدفن معه فتوكل لامرأتين تهتمان بها، ثم تقضي أيامها الباقيات في الشرب والغناء وهي فرحة مستبشرة،[٣٨]، وعند اليوم العاشر، تحضر إلى النهر حيث ترسو سفينة المتوفى، ثم تتم استعدادات الحرق وهو بعد في قبره، ثم يُخرج من قبره ويلبس الثياب ويزين ثم يُحمل إلى مقصورة السفينة ويضعون إلى جانبه النبيذ والفاكهة والريحان، وهي إشارة إلى اعتقادهم بالحياة بعد الموت، وقد فصل ابن فضلان في الطقوس كلها وكيف تتم، وقد شاهد كل ذلك بنفسه، لكن الأغرب في هذا الطقس هو أن الجارية التي قبلت أن تموت معه حرقًا تدور على بيوت أصدقائه واحدًا واحدًا فيَطَؤُهَا جميعهم ويقولون لها "قولي لمولاك إنما فعلت هذا من محبتك".[٣٩]

ولنترك ابن فضلان يكمل الوصف الغريب لنعيش جو نصه ونفسه: "فلما كان وقت العصر من يوم الجمعة جاءوا بالجارية إلى شيء قد عملوه مثل مَلْبَن الباب[٤٠] فوضعت رجلها على أكف الرجال وأشرفت على ذلك الملبن، وتكلمت بكلام، فأنزلوها. ثم أصعدوها ثانية ففعلت كفعلها في المرة الأولى، ثم أنزلوها واصعدوها ثالثة، ففعلت فعلها في المرتين. ثم دفعوا إليها دجاجة فقطعت رأسها ورمت به وأخذوا الدجاجة فألقوها في السفينة. فسألت الترجمان عن فعلها فقال: "قالت في أول مرة اصعدوها: هو ذا أرى أبي وأمي، وقالت في الثانية: هو ذا أرى جميع قرابتي الموتى قعودًا، وقالت في المرة الثالثة: هو ذا أرى مولاي قاعدًا في الجنة والجنة حسنة خضراء، ومعه الرجال والغلمان وهو يدعوني فاذهبوا بي إليه، فمروا بها نحو السفينة فنزعت سوراين كانا عليها، ودفعتهما إلى المرأة التي تسمى ملك الموت وهي التي تقتلها. ونزعت خلخالين كانا عليها ودفعتهما إلى الجاريتين اللتين كانتا تخدمانها وهما ابنتا المرأة المعروفة بملك الموت. ثم اصعدوها إلى السفينة ولم يدخلوها إلى القبة. وجاء الرجال ومعهم التراس والخشب ودفعوا إليها قدحًا نبيذًا فغنت عليه وشربته. فقال الترجمان إنها تودع صواحباتها بذلك. ثم دفع إليها قدح آخر فأخذته وطولت الغناء، والعجوز تستحثها على شربه والدخول إلى القبة التي فيها مولاها فرأيتها وقد تبلدت وأرادت دخول القبة، فأدخلت رأسها بينها وبين السفينة فأخذت العجوز رأسها وأدخلتها القبة ودخلت معها. وأخذ الرجال يضربون بالخشب على التراس لئلا يسمع صوت صياحها فيجزع غيرها من الجواري ولا يطلبن الموت مع مواليهن. ثم

دخل إلى القبة ستة رجال فجامعوا بأسرهم الجارية ثم أضجعوها إلى جانب مولاها وأمسك اثنان رجليها واثنان يديها وجعلت العجوز التي تسمى ملك الموت في عنقها حبلاً مخالفًا ودفعته إلى اثنين ليجذباه، وأقبلت ومعها خنجر عريض النصل فأقبلت تدخله بين أضلاعها موضعا وتخرجه والرجلان يخنقانها بالحبل حتى ماتت"[٤١]. بعد ذلك يصف ابن فضلان كيفية إحراق السفينة وفيها الجارية المقتولة ومولاها المتوفى وما وضع فيها من متاع.

ونخلص إلى أن الثقافة الإسلامية لابن فضلان بالإضافة إلى مستوى التحضر التي كانت عليه بغداد حيث عاش، كانتا الضابطتين لمشاهداته والملهمتين لأحكامه، وقد برزت هذه الأحكام في الوصف العام، مثل قوله "أنهم كالحمير الضالة لا يدينون بدين ولا يستنجون من غائط وأن نساءهم لا يسترن من رجالهم"، وفي الحكم الأخير إشارة إلى الفارق الثقافي بينه وبين ما يشاهد، لكنه بعد ذلك يستمر في عرض المشاهدات معتمدًا على بداهة المخالفة والاستنكار لما يشاهد ويصف. وتجدر الإشارة هنا إلى؛ أن هذه الصور اختفت بعدئذ ولم تظهر في رحلة الغرناطي أبو حامد الأندلسي الذي زار هذه الجهات بعد مائة عام واستوطنها لما يزيد عن ثلاثة عقود، وبعد انعدام هذه الأوصاف اللافتة لأي مسلم عند الغرناطي وحضور أوصاف الجواري وأسواقهن بدلاً من ذلك دليلاً على أن تلك الجهات في أواسط آسيا قد تغيرت سماتها الثقافية خلال قرن من الزمان وأن كثيرًا من ملامح الثقافة الإسلامية حل محل السمات التي صادفها ابن فضلان.

٣/١- المرأة في رحلة أبي دُلَف الينبوعي الخزرجي:

تفيد سيرة أبي دُلَف المبثوثة باختصار في عدد يسير من المصادر، أنه عاش في القرن الرابع الهجري ولا يعلم له تاريخ ولادة ولا وفاة. ويرجح كراتشكوفسكي أنه، وبحكم إجادته الشعر، كان يمدح بشعره الأكابر ويتقرب منهم وهذا ما أوصله إلى الأمير الساماني نصر بن أحمد[٤٢]، كما أنه كان يعشق التجول والترحال فاشتهر بذلك أيضًا، قال عنه معاصره ابن النديم "وكان جوالة"[٤٣] ووصفه الثعالبي بأنه كان من أهل "الإطراب والاغتراب وركوب الأسفار الصعاب في خدمة العلوم والآداب"[٤٤] وقال عنه القزويني "كان سياحًا"،[٤٥] ونقل عنه في كتابيه "آثار البلاد وأخبار العباد" و" عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات".

والثابت أنه كان مقربًا في بلاط الأمير الساماني نصر بن نوح، وهي اللحظة التاريخية التي مكنته من السياحة والتجوال، فقد ذكر أنه خرج مرافقًا لوفد صيني قدم إلى الأمير الساماني نصر بن نوح لخطبة ابنته لملك الصين رغبة في مصاهرته، فلما لم يوافق الملك الساماني على ذلك جرى الاتفاق مع الوفد على أن يزوج الملك الساماني أحد أبنائه من ابنة ملك الصين. وقد رافق أبو دُلَف هذا الوفد إلى الصين وسجل فيما بعد مشاهداته لهذه الرحلة في الكتاب المسمى "الرسالة الأولى" التي احتوت أخبار رحلته من بخارى عاصمة السامانيين إلى عاصمة الصين عبر أواسط آسيا أو تركستان الغربية والشرقية، وبعد وصوله إلى الصين انحدر جنوبًا إلى الهند، وأخبار هذه الرحلة هي التي سنستعرضها هنا لتوفرها بين أيدينا في كتاب مطبوع ومحقق، بينما تعذر الحصول على الرسالة الثانية، وفيها مشاهدات رحلته إلى أذربيجان وأرمينيا وإيران.[٤٦]

في طريقه إلى الصين وصف أبو دُلَف القبائل التركية، ولم تتضمن الرسالة الأولى أية أوصاف لغير القبائل التركية ومنها قبائل البجناك، بالجكل، الخرلخ، الخطلخ، وقبيلة الختيان وهي قبائل تذكرها كتب الجغرافيا والبلدان بكونها قبائل تركية ومواقعها أواسط آسيا، في المساحة الممتدة بين مملكة الخزر وشمال الصين، وجميع هذه القبائل التي مر بها تقع خارج حدود ديار الإسلام، ولم تكن مسلمة أيضًا. ورغم أن مسار رحلة أبي دُلَف قد حير الدارسين ودار حولها جدل كبير،[٤٧] إلا أن ما يهمنا هي المشاهدات التي سجلها مما يتصل بالمرأة خصوصًا.

وأول القبائل التي يرد لنسائها ذكر هي قبيلة "البجناك"، وكان ابن فضلان قد وصفها في طريقه إلى بلاد البلغار ولم يرد لنسائها عند ابن فضلان ذكر. أما أبو دُلَف الذي ذكر أنه مر ببلاد هذه القبيلة في طريقه المتجه شرقًا، فقد تهيأ له أن يشاهد صورًا للمرأة، فذكر أن رجال هذه القبيلة "همج يغير بعضهم على بعض ويفترش الواحد منهم المرأة على ظهر الطريق"[٤٨] ، وفي قبيلة بالجكل، وجد أن الرجل يتزوج "بابنته وبأخته وسائر محارمه، وليسوا مجوسا، ولكن هذا مذهبهم في النكاح"[٤٩]، وحين وصل إلى قبيلة الخرلخ، ذكر أن "البغي والجور بينهم ظاهر وبغير بعضهم على بعض، والزنا بينهم ظاهر غير محظور، وهم أصحاب قمار، يقامر الواحد صاحبه في امرأته وابنته وأمه" ويقول: "إن الجمال في نسائهم ظاهر، وكذلك الفساد، وهم قليلو الغيرة تجيء امرأة الرئيس فمن دونه أو ابنته أو أخته إلى القوافل إذا وافت البلد فتعترض الوجوه، فإن أعجبها إنسان أخذته إلى منزلها وأنزلته عندها وأحسنت إليه وتصرف زوجها وولدها وأخاها في حوائجه ولم يقربها زوجها مادام من تريده نازلا عندها إلا لحاجة يقضيها ثم ينصرف وهي من تختاره في أكل وشرب وذلك بعين زوجها لا يغيره ولا ينكره".[٥٠]

وينبغي التعليق على حكم أبي دُلَف هنا فيما يتعلق بالزنا، فجميع مشاهدات الرحَّالة، ومنها مشاهداته هو عندئذ، تنقل أن الزنا جرم عاقبت عليه كل الثقافات، لكن قول أبي دُلَف في أن الزنا في هذه القبيلة غير محظور، ينبغي أخذه ببعض الحذر، فهو الاستثناء في كل مشاهدات الرحَّالة شرقًا وغربًا، ولعل أبا دُلَف قد بالغ في استنتاج هذا الحكم من طبيعة الحياة الاجتماعية الجارية وفيها قدر من البدائية وعدم الانضباط مقارنة بثقافة المجتمعات الإسلامية، ولعلها من مسموعات أبي دُلَف لا من مشاهداته، والمسموعات تعتريها المبالغة التي يتبادلها الناس عن الأقوام للشماتة والتعيير وتمجيد الذات دون تثبت، لكن وصفه للمرأة التي تخرج للطريق لاختيار رجل تعاشره لا يبدو أنه يدخل ضمن مفهوم الزنا، وقد كان هذا السلوك معروفًا عند العرب في الجاهلية لطلب الولد الصبوح القوي البنية وعرف بنكاح "الاستبضاع".

وحين وصل أبو دُلَف إلى قبيلة الخطلخ ذكر أنهم "يتزوجون الأخوات، ولا تتزوج المرأة أكثر من زوج واحد، فإذا مات لم تتزوج بعده، ولهم رأي وتدبير، ومَنْ زنا في بلدهم أحرق هو والتي يزني بها، وليس لهم طلاق، والمهر جميع ملك الرجل (..) وملكهم ينكر الشر ولا يتزوج فإن تزوج قُتل".[٥١] أما قبيلة "الختيان" وهي آخر قبيلة يرد للنساء ذكر فيها، يقول أبو دُلَف بأنهم "يتزوجون تزويجًا صحيحًا وأحكامهم أحكام عقلية تقوم بالسياسة وليس لهم مَلِك".[٥٢] وآخر صور للنساء تأتي من الصين، وهي صورة اجتماعية لأعراس بنات الملوك، فذكر أبو دُلَف لقاءه بملك الصين ووصف كيف جهز ملك الصين ابنته العروس، وأنه سلمها إلى "مائتي خادم وثلاثمائة جارية من خواص خدمه وجواريه وحملت إلى خراسان".[٥٣]

ثانيًا: المرأة في مشاهدة الرحَّالة في البلاد الإسلامية

١/٢- صور المرأة في رحلة ابن جبير:

على عكس ندرة الأخبار عن رحَّالة الهند والصين وأواسط آسيا السابقين، تحتفي كتب السير والتراجم بسيرة ابن جبير، فهو عربي أندلسي، ولد في بلنسية سنة (٥٤٠هـ/١١٤٥م) ومات في الإسكندرية سنة (٦١٤هـ/١٢١٧م). برزت مواهبه في الحديث والقراءات والأدب وكتب الشعر، كما برع في الكتابة وكانت صناعته الأصل ومهنته الرئيسة شطرًا من حياته، وهي صنعة تشترط سعة الاطلاع ورفعة الذوق اللغوي، وقد ظهر هذا جليًا في كتاب رحلته[٥٤]، وهو فوق ذلك يتصف بالفضل والتقوى والورع وبأن "ذكره شهير ورحلته نسيج وحدها، طارت كل مطار"[٥٥]. والحق أن ابن جبير كان رحَّالة بصيرًا، جعل من قصد مكة للحج سببًا للسياحة والتجوال، فأثمرت رحلته كتابًا ذاع صيته يومئذ وما يزال، وتمكن بقلمه البليغ من نقل دهشته لصور المرأة التي صادفته فجعلها حية نابضة وحفظ لنا مشاهد متنوعة بالغة الإثارة والندرة لم يسجلها قلم غيره.

قام ابن جبير برحلات ثلاث إلى المشرق، لكن رحلته الأولى والأطول زمنًا هي التي نتج عنها كتاب الرحلة قيد الدرس، وقد استغرقت الرحلة زهاء الثلاث سنوات بدأت من غرناطة في الثامن من شوال سنة ٥٧٨ للهجرة وعاد إلى غرناطة في الثاني والعشرين من محرم سنة ٥٨١. وشملت رحلته مدنًا في صقلية ومصر والسودان والجزيرة العربية والعراق والشام. يتفق المؤرخون وأهل الأدب على القيمة الاستثنائية لرحلة ابن جبير لدقته في وصف مشاهداته وحرصه على لغة رفيعة تجمع بين أناقة اللفظ ودقة الوصف، ثم لأنها تُعَدّ شهادة حيوية تلقائية على أوضاع المسلمين في القرن السادس الهجري، قرن صلاح الدين الأيوبي والحروب الصليبية، وجملة من أحوال بلاد الإسلام السياسية والاجتماعية والدينية لا يتوافر عليها المؤرخ إلا في رحلة ابن جبير.

تنوعت مشاهدات ابن جبير وأوصافه بين التاريخي والسياسي والحضاري والاجتماعي، إلا أن ما يتعلق بمشاهدات ابن جبير متصلاً بالمرأة يُعَدّ يسيرًا بالقياس إلى اتساع المساحة الجغرافية التي اشتملت عليها رحلته وإلى حجم الكتاب وكثافة الأوصاف الأخرى، ومع ذلك فقد التقطت عين ابن جبير كغيره من الرحَّالة الاستثنائي والبارز، وتركت المألوف اليومي. وهذا الاستثنائي هو ما نود التركيز عليه لقيمته التاريخية في سياق التاريخ الاجتماعي للمسلمين. ويمكن الوقوف على مزاج ابن جبير وثقافته من خلال أحكامه التي نثرها هنا وهناك، وهي إجمالاً مزيج من انبهار بالمنجزات الحضارية من معمار وصناعة، وخيبات أمل متفرقة فيما يتعلق بسلطان الدين في نفوس البشر وأثره في سلوكهم لاسيما الرسمي منه. وأول ذكر للنساء في رحلة ابن جبير يرد حين وصل ابن جبير مدينة قنا في صعيد مصر، قادمًا من الإسكندرية والقاهرة دون أن يذكر شيئًا عن النساء في هاتين المدينتين الرئيسيتين اللتين وصل إليهما بحرًا من صقلية، لكنه حين وصل مدينة قنا ذكر نساءها ونساء دشنة، وهي مدينة تقع في الشط الشرقي من النيل. يقول ابن جبير في وصف نساء قنا "ومن مآثرها المأثورة صون نساء أهلها والتزامهن البيوت، فلا تظهر في زقاق من أزقتها امرأة البتة، صحت بذلك الأخبار عنهن، وكذلك نساء دشنة المذكورة قبيل هذا".[٥٦]

ويمكن استخلاص أن ابن جبير شاهد نساء الاسكندرية والقاهرة في الشوارع، لكنه أعرض عن تسجيل مشاهداته عنهن، إما ترفعًا عن الانشغال بأخبار النساء أو أنه لم ير في أسواق هاتين المدينتين وأحيائهما ما يخالف مدن الأندلس، لكنه في قنا شاهد عكس الشائع من السلوك وسمع عنه أيضًا فاستحق التسجيل والتنويه، فعد التزام النساء لبيوتهن في قنا، مأثرة من مآثر المدينة، وهو حكم كاشف لذهنية ابن جبير الثقافية وقناعاته الدينية، وهي تلك التي ترى أن لا مكان للنساء في شوارع المدن أو الساحات العامة، بل التزام البيوت وهو عنوان العفة والعفاف.

وفي جدة التي وصلها يوم الثلاثاء الرابع من شهر ربيع الآخر ٥٧٨، الموافق للسادس والعشرين من شهر يوليو١١٨٢، نقف ثانية على ذكر للنساء ولكنه ليس ذكرًا مستقلاً بل ملحقًا بأوصافه لأحوال "الأشراف العلويين" الساكنين في جدة، يسجلها ابن جبير بحسرة وأسى، وأنهم "من شظف العيش بحال يتصدع له الجماد إشفاقا".[٥٧] وأنهم يستخدمون أنفسهم في كل مهنة من المهن، فيكرون الجمال أو يبيعون اللبن والماء ويحتطبون الحطب "وربما تناول ذلك نساؤهم الشريفات بأنفسهن". فابن جبير يكشف من خلال هذه الأوصاف عن مخزون ذهني مرسخ عند عامة المسلمين، يتصل بتصوراتهم عن حياة "الأشراف العلويين"، وهو يراهم أجل من أن تكون تلك حالهم وزيادة في الإشفاق يذكر أن نساءهم ربما عملن بأيديهن في الاحتطاب، وهو يراهن، وفق مخزونه الذهني وثقافة عصره، أجل من أن يقمن بتلك الأعمال.

بعد جدة يصل ابن جبير إلى مكة ويمكث بها ثمانية أشهر وثلث الشهر، وقد حدد هذه المدة بنفسه وبدقة من ٣ ربيع الآخر إلى ٢٢ من ذي الحجة لعام ٥٧٩ للهجرة.[٥٨] أتاحت هذه المدة لابن جبير أن يطنب في أوصاف مكة وينوع، ويكون للنساء فيها نصيب من الذكر وفير. قدم ابن جبير وصفًا بديعًا للطقوس المتعلقة بما عرف يومئذ بـ

"العمرة الرجبية"، وهي ليلة الأول من شهر رجب، وبأنها عيد من الأعياد الكبرى يشترك فيه أهل مكة ونواحيها بمن فيهم الأمير ونساؤه. فالنساء في هذه الليلة يخرجن إلى الحرم ليعتمرن في أجواء احتفالية رصدها ابن جبير بدقة مهورًا بالزحام والتدافع والألوان والأنوار وروح العيد السائد في كل تفاصيل الاحتفال بهذه الليلة العظيمة[٥٩]. ثم إن النساء الموصوفات هنا كن في هوادجهن المزينة، وقد وصف على وجه التحديد هودج الشريفة جمانة بنت فليتة عمة الأمير مكثر (أمير مكة)[٦٠] وكيف أن ستور الهودج الملونة كانت تنسحب على الأرض انسحابًا وكذلك كان حال بقية الهوادج الخاصة بحرم الأمير وحرم قواده وسواها من الهوادج التي لم يستطع ابن جبير لها عدا، "فكانت تلوح على ظهور الإبل كالقباب المضروبة، فيخيل للناظر إليها أنها محلة قد ضربت أبنيتها من كل لون رائق"[٦١].

وأكثر الأوصاف إثارة وغرابة ما عرضه ابن جبير عن عمرة النساء بهوادجهن وسعيهن بين الصفا والمروة على ظهور الإبل، لاسيما وقد كان حاضرا أثناء سعي النساء. يقول: " فلما قضينا العمرة وطفنا وجئنا للسعي بين الصفا والمروة، وقد مضى هدء من الليل، أبصرناه كله سرجا ونيرانا وقد غص بالساعين والساعيات على هوادجهن، فكنا لا نتخلص إلا بين هوادجهن وبين قوائم الإبل لكثرة الزحام واصطكاك الهوادج بعضها على بعض، فعاينا ليلة هي أغرب ليالي الدنيا"[٦٢]. ويصف ابن جبير اليوم التالي لتلك الليلة بأنه يوم عيد، وفيه رأى طريق العمرة مكتظًا بالناس رجالاً ونساءً، وذكر أن النساء الماشيات المتأجرات كن أكثر من الرجال وكن يسابقنهم في تلك السبيل المباركة."[٦٣] لكنه لا يذكر أية تفاصيل إضافية تخصهن. ويعود ابن جبير لذكر النساء ثانية في سياق وصفه لشهر رجب كله وأنه شهر "معمور بأنواع العبادات من العمرة وسواها"[٦٤]، لكن أوله ومنتصفه فيه زيادات احتفالية خاصة، كما تختص يوم السابع والعشرين منه بميزات وكذلك يوم التاسع والعشرين منه الذي يخصص لطواف النساء.[٦٥]

وقد وصف ابن جبير هذا اليوم وصفًا دقيقًا، بليغًا، وذكر كيف تستعد النساء لهذا اليوم كيوم عيد وكيف يتزاحمن على دخول الكعبة ويصنعن من بعضهن سلاسل ويتشابكن فيصدر عنهن العويل والتكبير والتهليل، ويبقين على ذلك صدرًا من النهار ثم يبدأن في الطواف حول الكعبة ويتشفين من تقبيل الحجر واستلام الأركان، وكان ذلك اليوم عندهن الأكبر، ويومهن الأزهر الأشهر، نفعهن الله به وجعله خالصًا لكريم وجهه."[٦٦] وقد أظهر ابن جبير تعاطفه مع النساء وبارك تخصيص يوم لهن للطواف بسبب ما ينالهن من غبن في سائر الأيام"، يقول: "وبالجملة فهن مع الرجال مسكينات مغبونات يرين البيت الكريم ولا يلجنه ويلحظن الحجر المبارك ولا يستلمنه. فحظهن من ذلك كله النظر والأسف المستطير المستشعر. فليس لهن سوى الطواف على البعد، وهذا اليوم الذي هو من عام إلى عام فهن يرتقبنه ارتقاب اشرف الأعياد ويكثرن له من التأهب والاستعداد، والله ينفعهن في ذلك بحسن النية والاعتقاد، بمنه وكرمه."[٦٧]

ومع اقتراب موسم الحج أخذ ابن جبير في وصف مواكب المتقاطرين إلى مكة من الحجاج، فوصف فيما وصف وفد العراق وفيهم جمع من "النساء العقائل المعروفات بالخواتين"، والخاتون لقب للسيدة الرفيعة المتصلة ببيت الحكم السلجوقي، وكان السلاجقة قوة إسلامية كبرى في القرن السادس الهجري، رغم تعدد سلاطينهم. وبعد ذكر أوصاف الحج وكسي الكعبة وانقضاء أيام الحج الأصلية يذكر أن البيت الكريم (الكعبة) يفتح كل يوم للأعاجم العراقيين والخراسانيين وسواهم من الواصلين مع الوفد العراقي، وفيهم النساء القادمات مع الوفد من خواتين وسواهن، ثم يقدم وصفًا نابضًا للتزاحم الشديد على باب الحرم المكي، الذي يصفه "بالباب الكريم"[٦٨] فيه: "فظهر من تزاحمهم وتطارحهم على الباب الكريم ووصول بعضهم على بعض وسباحة بعضهم على رؤوس بعض كأنهم في غدير من الماء، أمرٌ لم ير أهول منه"[٦٩]، "ويضيف واصفًا حال النساء في هذا الخضم ببلاغة راقية" وربما زاحمهم في تلك الحال بعض نسائهم فيخرجن وقد نضجت جلودهن طبخًا في مضيق ذلك المعترك الذي حَمى بأنفاس الشوق وطيشه، والله ينفع الجميع بمعتقده وحسن مقصده بعزته."[٧٠] وفي هذه اللحظات التي تنطبخ فيها أجساد النساء مع أجساد الرجال، لا يسجل ابن جبير نقدًا ولا اعتراضًا، بل يرى ذلك في أفق التعطش للقرب من الكعبة وحجرها الأسود، فيغضي عما سواه.

بعد ذلك ينضم ابن جبير إلى الوفد العراقي ليرتحل معه صوب العراق، ويكون الرحيل يوم الثاني والعشرين من ذي الحجة من سنة ٥٧٩ الهجري، فيتمكن من رصد حالة معسكر الحاج العراقي في "بطن مر"، القريب من مكة، إذ أقام الوفد فيه كامل يوم الجمعة، وكان من المفترض أن يرتحل الوفد صباح الجمعة، لكن أمير الحاج "أبو المكارم طاشتكين مولى الخليفة العباسي" تفقد موكب الملكة خاتون في موضعه فلم يجده، فتسبب هذا في تأخير الارتحال حتى يعثر ثانية على الخاتون التي عادت إلى الموكب مساء السبت، وفي سياق هذه الحادثة العجيبة قدم ابن جبير وصفًا للخواتين الثلاث اللاتي كن برفقة الوفد. وبدأ بذكر الخاتون المختفية من الموكب، فقال هي الملكة خاتون بنت الأمير مسعود[٧١] ملك الدروب والأرمن وما يلي بلاد الروم. وذكر أنها "أَسْرَت من "بطن مر" ليلة الجمعة في خاصة من خدمها وحشمها" فأخذ أمير الحاج يبحث عنها. وقد وصف ابن جبير حال الموكب وما سرت فيه من ظنون بسبب غياب الملكة، فقال "أُجيلت في سبب انصراف هذه الملكة قداح الظنون، وسُلَّت الخواطر على استخراج شرها المكنون، فمنهم مَنْ يقول إنها انصرفت أنفة لبعض ما انتقدته على الأمير، ومنهم مَنْ قال: "أن نوازع الشوق للمجاورة عطفت بها إلى المثابة المكرمة،"[٧٢] ولم يزد على ذلك من الظنون والخواطر، لكنه يصف اتساع مملكة أبيها، ثم يذكر معجبًا ومحييًا بعض أفعال البر التي قامت بها هذه الخاتون ومنها "سقي الماء للسبيل، عينت لذلك نحو الثلاثين ناضحة، ومثلها للزاد واستجلبت لما تختص به من

الكسوة والأزودة وغير ذلك نحو المئة بعير. وأمورها يطول وصفها، وسنها نحو خمسة وعشرين عامًا".

ورغم إعجاب ابن جبير الواضح بأفعال البر لهذه السيدة، لكنه آثر الاختصار واكتفى هنا بما ذكر عنها. ثم عرف بالخاتونة الثانية وذكر أنها أم عز الدين صاحب الموصل، أما الثالثة فهي ابنة الدقوس صاحب أصبهان، وقد ذكر لهما أفعال بر كثيرة وختم بالقول "وشأنهن جُمَع عجيب جدا فيما هن بسبيله من الخير والاحتفال في الأبهة الملوكية".[٧٣] وما وصفه ابن جبير هنا كان من وحي مشاهداته، لكنه أضاف إلى هذا الوصف ما سمع من أعمال بر تتكفل بها هذه الخواتين في مواسم الحج فقال "ولهذه النسوة الخواتين في كل عام، إذا لم يحججن بأنفسهن، نواضح مسبلة مع الحاج يرسلنها مع ثقات يسقون أبناء السبيل في الموضع المعروف فيها الماء، وفي الطريق كله، وبعرفات، وبالمسجد الحرام في كل يوم وليلة، فلهن في ذلك أجر عظيم، وما التوفيق إلا بالله جل جلاله".[٧٤]

وقد استأثرت الخاتون بنت الأمير مسعود بالنصيب الأوفر من أفعال البر ومن الذكر فهي يدعى لها باسمها في مواسم الحج حين تفيض بأفعال البر على الحجاج، ولذلك يتكرر وصفها عند ابن جبير في مواضع مختلفة ومنها وصف أحوالها حين وصف الوفد العراقي إلى المدينة المنورة، فلقد خصها ابن جبير بالذكر والرياسة مع أن باقي الخواتين كن حاضرات معها، ويبدو أن ذلك راجع لكثرة أفعالها الخيرة الكريمة ولإدراك ابن جبير لقدرها وقدر أبيها السلطان. وتتضح مكانتها وقدرها أكثر حين يصف ابن جبير زيارتها للمسجد الحرام في المدينة، مسجد رسول الله (ﷺ) كما سماه ابن جبير، وما رافق ذلك من أبهة ملوكية ومجلس وعظ مؤثر. ذكر ابن جبير أن الخاتون بنت الأمير مسعود زارت المسجد في اليوم الرابع لوصولهم إلى المدينة، وقد زارته "راكبة في قبتها، وحولها قباب كرائمها وخدمها، والقراء أمامها، والفتيان والصقالب بأيديهم مقامع الحديد يطوفون حولها، ويدفعون الناس أمامها، إلى أن وصلت إلى باب المسجد المكرم، فنزلت تحت ملحفة مبسوطة عليها، ومشت إلى أن سلمت على النبي(ﷺ)، والخَوَلُ (العبيد والخدم) أمامها، والخدام يرفعون أصواتهم بالدعاء لها، إشادة بذكرها، ثم وصلت إلى الروضة الصغيرة التي بين القبر الكريم والمنبر فصلت فيها تحت الملحفة، والناس يتزاحمون عليها، والمقامع تدفعهم عنها. ثم صلَّت في الحوض بإزاء المنبر، ثم مشت إلى الصفحة الغربية من الروضة المكرمة فقعدت في الموضع الذي يقال إنه كان مهبط جبريل عليه السلام، وأرخي الستر عليها، وأقام فتيانها وصقالبها وحجابها على رأسها خلف الستر تأمرهم بأمرها واستجلبت معها إلى المسجد حملين من المتاع للصدقة، فما زالت في موضعها إلى الليل.[٧٥]

ثم يصف ابن جبير بعد ذلك مجلس وعظ، تحدث فيه صدر الدين الأصبهاني رئيس الشافعية، ولقبه رئيس العلماء كما يثبت ذلك ابن جبير، وقد مدح ابن جبير وعظه وسعة علمه وسحر بيانه وقدرته على الوعظ باللسانين العربي والعجمي. ويستفاد من السياق أن مجلس الوعظ هذا قد أعد خصيصًا لتشريف الخاتون، ولم يفته أن يسجل أنه عند وصول الواعظ صدر الدين الأصفهاني إلى المسجد وقعوده في كرسي بإزاء الروضة المقدسة، أن الُسُتُر أزيلت عن الخاتون "وبقيت بين خدمها وكرائمها متلفعة في ردائها، فعاينا من أمرها في الشهرة الملوكية عجبًا"[٧٦]. ويُستفاد من سياق وصف ابن جبير لأسلوب شحت مقيت، أن النساء كن يصلين مع الرجال في المسجد النبوي ولا ساتر بينهما، وأن خطيب يوم الجمعة أتى بدعة نكراء، وذلك أنه بعد فراغه من الخطبة الأولى جلس جلسة طويلة قام أثناءها جَمْعٌ من أتباعه باختراق صفوف المصلين للشحت منهم، فكل قدم شيئًا "ومن النساء من تطرح خلخالها وتخرج خاتمها فتلقيه"،[٧٧] ولم يقم للخطبة الثانية إلا بعد أن ضج الناس واستكمل شحاتوه المهمة "واجتمع له من ذلك السحت المؤلف كوم عظيم أمامه".[٧٨]

في بغداد، حاضرة الخلافة الإسلامية ومدينة المدائن، بأسواقها وناسها، وصف ابن جبير فيها الناس وأخلاقهم ومجالس الوعظ والعلم والمدارس، ووجد المدينة مخالفة لما تخيله فذكر طللها الدارس وأثرها الطامس، وأن لا حسن فيها يستوقف النظر باستثناء نهر دجلة وجمال النساء، "والحسن الحريمي بين هوائها ومائها ينشأ، وهو من ذلك على شهرة في البلاد معروفة وموصوفة، ففتن الهوى، إلا أن يعصم الله منها، مخوفة".[٧٩] ولم يزد على ذلك في ذكر النساء في بغداد، لكنها إشارة مقتضبة تختصر حياة الحواضر الكبرى وما ينشأ فيها من تفنن في إشباع الرغبات ومنها أحاديث النساء وحسنهن، إلا أن ورع ابن جبير وتقواه الواضحة قد كبلت قلمه البليغ بشكل واضح فاكتفى بالتلميح.

وفي الطريق من بغداد إلى الموصل يستأنف ابن جبير وصف مواكب الخواتين السلجوقيات، فقد أتفق أن الحجاج الذين أراحوا في بغداد استأنفوا سيرهم باتجاه خراسان بصحبة إحدى الخواتين وهي ابنة الملك الدقوس، ومنهم من واصل المسير باتجاه الموصل والشام بصحبة اثنتين من الخواتين هما: الخاتون بنت مسعود التي تقدم ذكرها، ثم خاتون أم عز الدين حاكم الموصل، وقد كان ابن جبير ضمن هذا الموكب المتجه إلى الموصل ولم يذكر شيئا عن سبب وجوده في هذا الموكب، ولعل طلب أمان الطريق كان سبب ذلك لوجود جمع كبير من العسكر لحراسة الخاتونتين، ويستغرب ابن جبير في لمحة ثقافية مغايرة أن تكون هاتان الخاتونتان هما أميرتا العسكر وقائدتاه، وقد استعاذ بالله مستنكفا كي لا يجعله تحت قول القائل "ضاع الرعيل ومَنْ يقوده".[٨٠] ويمكن الوقوف على عمق دهشة ابن جبير من سلطة وأبهة موكب الخاتونتين من خلال أوصافه المدهشة ببلاغتها ودقتها. يقول ابن جبير: "وفي تلك العشية التي رحلنا فيها فجأتنا خاتون المسعودية المترفة شبابًا وملكًا، وهي قد استقلت في هودج موضوع على خشبتين معترضتين بين مطيتين الواحدة أمام الأخرى وعليها الجلال المذهبة، وهما يسيران بها سير النسيم سرعة ولينا، وقد فتح لها أمام الهودج وخلفه بابان، وهي ظاهرة في وسطه متنقبة وعصابة ذهب على رأسها، وأمامها رعيل من فتيانها وجندها، وعن يمينها جنائب المطايا والهماليج العتاق ووراءها ركب من جواريها

قد ركبن المطايا والهماليج على السروج المذهبة وعصبن رؤوسهن بالعصائب الذهبيات والنسيم يتلاعب بعذباتهن وهن يسرن خلف سيدتهن سير السحاب. ولها الرايات والطبول والبوقات تضرب عند ركوبها وعند نزولها. وأبصرنا من نخوة الملك النسائي واحتفاله رتبة تهز الأرض هزًا، وتسحب أذيال الدنيا عزًا".[٨١]

ثم يصف ابن جبير مشهد استقبال الخواتين في الموصل وبأنه "من أحفل المشاهد الدنيوية"، ولكنه يلحق صفة "المُريبة"، لهذا المشهد حيث خرج أمير الموصل لاستقبال أمه والخاتونة بنت الأمير مسعود المتقدم ذكرها " فخرج الناس على بكرة أبيهم، ركبانا ومشاة، وخرج النساء كذلك، وأكثرهن راكبات، وقد اجتمع منهن عسكر جرار. وخرج أمير البلد للقاء والدته مع زعماء دولته. فدخل الحاج المواصلة صحبة خاتونهم على احتفال وأبهة قد جللوا أعناق إبلهم بالحرير الملون، وقلدوها القلائد المزوقة. ودخلت خاتون المسعودية تقود عسكر جواريها وأمامها عسكر رجالها يطوفون بها. وقد جللت قبتها كلها سبائك ذهب مصوغة أهلة ودنانير سعة الأكف وسلاسل وتماثيل بديعة الصفات، فلا تكاد تبين من القبة موضعًا ومطيتاها تزحفان بها زحفًا، وصخب ذلك الحلي يسد المسامع، ومطاياها مجللة الأعناق، ومراكب جواريها كذلك، ومجموع ذلك الذهب لا يحصى تقديره. وكان مشهدًا أبهت الأبصار، وأحدث الاعتبار، وكل مُلك يفنى إلا ملك الواحد القهار".[٨٢] ثم روى ما سمع عن هذه الخاتون وأنها موصوفة بالعبادة والخير، مؤثرة لأفعال البر وأنها أنفقت مالاً عظيمًا في طريقها إلى الحجاز للحج، وأنها "تحب الصالحين والصالحات وتزورهم متنكرة رغبة في دعائهم"[٨٣]، ولم يزد على أن نفث عجبه مما شاهد وسمع بقوله "وأمرها عجيب كله على شبابها وانغماسها في نعيم الملك. والله يهدي مَنْ يشاء من عباده". ويبدو واضحًا أن الخواتين السلجوقيات كن يتوفرن على أموال كبيرة ويسارعن في أعمال البر المختلفة، وقد ذكر ابن جبير وهو في دمشق أن "من النساء الخواتين ذوات الأقدار مَنْ تأمر ببناء مسجد أو رباط أو مدرسة وتنفق فيها الأموال الواسعة وتعين لها من مالها الأوقاف".[٨٤]

وفي دمشق وصف ابن جبير أيضًا أحوالاً متعلقة بطقوس استقبال الحجاج تشارك فيها النساء، وقد عدها من الأمور العجيبة وغير المألوفة في بلاد المغرب، وهو يروي ذلك بالسماع ويؤكده بما حصل بالمشاهدة في بغداد، من ذلك أن الناس رجالاً ونساءً يخرجون لاستقبال الحجاج فيصافحونهم ويتمسحون بهم وأن "كثيرًا من النساء يتلقين الحاج ويناولنهم الخبز، فإذا عض الحاج فيه اختطفنه من أيديهم وتبادرن لأكله تبركًا بأكل الحاج له ودفعن له عوضًا من دراهم، إلى غير ذلك من الأمور العجيبة"[٨٥]. وقد أعرض عن التفصيل في هذه الأمور واكتفى بالتلميح خوفًا من خروج الكتاب عن مقصده كما قال، وكأن التفصيل في صور المرأة من عوارض المشاهدات وليست أصلاً، وفي هذا انكشاف لذهنية ابن جبير وهي جزء من ذهنية العصر الذكورية عمومًا.

وعند مغادرة ابن جبير لدمشق يبدأ بالمرور في مدن واقعة تحت حكم الصليبيين، في القرن السادس، وهو قرن الحروب الصليبية، وقد تمكنوا من إقامة إمارات لهم في بلاد الشام. وهنا تتجلى غيرة ابن جبير الوطنية والدينية، فتبدأ عباراته تنضح أسى وحسرة على ما يحل ببلاد المسلمين ووقوعها تحت سيطرة الصليبيين ويستعمل مفردات جارحة في وصف الإفرنج تكشف موقفه منهم ويتبعها بدعوات تناسب المقام، وسنتجاوز عن جل أوصافه العامة ونركز ثانية على مشاهداته ذات الصلة بالنساء، وهو الآن في مدينة بانياس وأنحائها ويصف ما يصف من حصون الإفرنج وأحوالهم، فيذكر أنه وصل إلى حصن كبير من حصون الإفرنج يعرف "بتبنين"، "وصاحبته خنزيرة تعرف بالملكة، وهي أم الخنزير صاحب عكة، دمرها الله"[٨٦]. وفي مدينة صور كان ابن جبير شاهدًا على عرس إفرنجي، فيصفه من موقعه الثقافي، ويقول: "ومن مشاهد زخارف الدنيا المحدث بها زفاف عروس شاهدناه بصور في أحد الأيام عند مينائها، وقد احتفل لذلك جميع النصارى رجالاً ونساءً، واصطفوا سماطين عند باب العروس المهداة، والبوقات تضرب والمزامير وجميع الآلات اللهوية، حتى خرجت تتهادى بين رجلين يمسكانها من يمين وشمال، كأنهما من ذوي أرحامها، وهي في أبهى زي، وأفخر لباس تسحب أذيال الحرير المذهب سحبا على الهيئة المعهودة من لباسهم، وعلى رأسها عصابة ذهب قد حفت بشبكة ذهب منسوجة، وعلى لُبّتها مثل ذلك منتظم وهي رافلة في حليها وحللها، تمشي فِترا في فتر مشي الحمامة أو سير الغمامة، نعوذ بالله من فتنة المناظر، وأمامها جلة رجالها من النصارى في أفخر ملابسهم البهية، تسحب أذيالها خلفهم، ووراءها أكفاؤها ونظراؤها من النصرانيات يتهادين في أنفس الملابس ويرفلن في أرفل الحلي، والآلات اللهوية قد تقدمتهم، والمسلمون وسائر النصارى من النظار قد عادوا في طريقهم سماطين يتطلعون فيهم ولا ينكرون عليهم ذلك، فساروا بها حتى ادخلوها دار بعلها، وأقاموا يومهم ذلك في وليمة، فأدانا الاتفاق إلى رؤية هذا المنظر الزخرفي المستعاذ بالله من الفتنة فيه".[٨٧]

وفي عكا تكدرت روح ابن جبير وانعكس ذلك في كلماته، وهو يرى مسلمات أسيرات في يد الإفرنج، "وفي أيديهن خلاخل الحديد فتنفطر لهم الأفئدة، ولا يغني الإشفاق عنهم شيئًا".[٨٨] ثم اقلع ابن جبير من عكا في العاشر من شهر رجب عام ٥٨٠، الثامن عشر من شهر أكتوبر صوب صقلية، وقد وصف أهوال البحر وما ألم بهم في رحلة كان يفترض أن تمتد لعشرة أيام حتى تصل إلى صقلية فدامت ثلاثة أشهر، وقد تم إنقاذ الركاب وهو منهم من هول البحر الأخير قبالة جزيرة صقلية، وأقام هناك في مدينة باليرمو (بلارمة) الفخمة، وكان يحكمها في هذا الوقت غليام، وهو غليوم الثاني الملقب بالملك الصالح، وقد حكم بين سني ١١١٦ إلى ١١٨٩ للميلاد. ويمدح ابن جبير هذا الملك مدحًا عاليًا لجميل أفعاله وسيرته الحسنة في المسلمين خصوصًا وأنه يستعملهم في خدمته وشؤونه الخاصة، وقد ذكر ابن جبير أن "الناظر في مطبخه رجل من المسلمين"[٨٩]، ويستفيض في ذكر نعمته وقصوره وأبهة ملكه، ويمتدح فيه حبه للعلم والعلماء، ويذكر أن من

غريب شأنه أنه يقرأ ويكتب بالعربية، وابن جبير هنا كعادته الغالبة يصف ما يشاهد ولا يدخل في تفسيرات ما يشاهد ويصف.

أورد ابن جبير ذكرا للنساء في مدينة مسينة، وهي من مدن صقلية التي فيها قلة من المسلمين يخفون بها إسلامهم، لكن أحوال المسلمين المستخدمين في قصر الملك في هذه المدينة يتفق مع التصوير العام لهذا الملك الصقلي المعجب بالمسلمين وبالثقافة الإسلامية ولغة العرب والباقي على مسيحيته رغم ذلك. فقد كان هؤلاء المسلمون يكتمون إسلامهم ولا يجاهرون به، ولا يقدم ابن جبير تفسيرا للعلاقة بين إقبال الملك على استعمال المسلمين وكتمهم إسلامهم، والراجح أن الملك كان يقدر علم المسلمين وثقافتهم لكنه في هذه المدينة التي يصفها ابن جبير بأنها "مظلمة الآفاق بالكفر، لا يقر لمسلم فيها قرار، مشحونة بعبدة الصلبان"، يقع في محيط مسيحي لا يستطيع معه احتمال إعلان مستخدميه لإسلامهم لأنهم كما يتضح من الوصف كانوا بحكم العبيد[٩٠]، ويتضح من وصف ابن جبير أنه وجد في هذه المدينة مسلمين كثر يصلون ويصومون ويتأجرون ويكتمون إسلامهم ولا يظهرون سرهم إلا لمَنْ وثقوا به، وقد كان ابن جبير من جملة هؤلاء الذين وقفوا على أحوال المسلمين الكاتمين لدينهم ومنهم مَنْ كان يعمل في خدمة الملك من المسلمين، وكذلك من المسلمات تحديدًا، وهو ما نود التركيز عليه لإبراز أثر الجواري المسلمات في نشر الإسلام بين النصرانيات. يقول ابن جبير: "وإما جواريه وحظاياه في قصره فمسلمات كلهن"،[٩١] ليس هذا فقط بل بلغ تأثيرهن حد "أن الأفرنجية من النصرانيات تقع في قصره فتعود مسلمة، تعيدها الجواري المذكورات مسلمة، وهن على تكتم من ملكهن في ذلك كله، ولهن في فعل الخير أمور عجيبة"[٩٢]. ويختلف حال المسلمين في بلارموا، عاصمة صقلية، حيث توجد المساجد ويسمع الآذان وللمسلمين فيها أرباضهم وتجاراتهم.

ومن غريب ما وصف ابن جبير أثر الثقافة الإسلامية في نساء النصارى وأزيائهن التي شاهدها في يوم عيد الميلاد الذي تصادف وشاهده ابن جبير في بليرمو، يقول: "وزي النصرانيات في هذه المدينة زي نساء المسلمين، فصيحات الألسن، ملتحفات، منتقبات، خرجن في هذا العيد المذكور وقد لبسن ثياب الحرير المذهب، والتحفن اللحف الرائقة، وانتقبن بالنقب الملونة، وانتعلن الأخفاف المذهبة، وبرزن لكنائسهن أو كنسهن حاملات جميع زينة نساء المسلمين من التحلي والتخضب والتعطر. فتذكرنا على جهة الدعابة الأدبية قول الشاعر: إن مَنْ يدخل الكنيسة يومًا يلق فيها جآذرا وظباء. ونعوذ بالله من وصف يدخل مدخل اللغو ويؤدي إلى أباطيل اللهو ونعوذ به من تقييد يؤدي إلى تفنيد، إنه سبحانه أهل التقوى وأهل المغفرة."[٩٣] في هذا النص يظهر ابن جبير بعض أحاسيس النشوة والانجذاب تجاه هؤلاء النسوة، لكنه يفعل ذلك بحذر شديد وتقوى حاضرة تلجمه عن الاسترسال في النشوة، فيتذكر قول الشاعر على سبيل الدعابة، و فيه لهفة وشوق، ثم سرعان ما يستعيذ بالله من هذا الوصف ويطلب المغفرة. وهذا يتفق مع الاحتشام العام لابن جبير لغةً وسلوكًا، وأعتقد أن لهذا الاحتشام العام النابع من ثقافة إسلامية وورع خاص بابن جبير بدا في ندرة الأوصاف المتعلقة بالنساء أو اختصارها والاكتفاء منها على البارز النادر غير المألوف.

وآخر صور النساء يوردها ابن جبير من مدينة أطرابنش (في جزيرة صقلية) وقد شاع فيها إكراه المسلمين كي يتنصروا. وابن جبير يقدم هذه الأوصاف بكثير من الأسى والحزن على ما يحل بالمسلمين، لكن ليست أشكال إكراه المسلمين هي وحدها من مبررات التنصر بل أحيانًا سوء العلاقة بين أفراد العائلة الواحدة، يقول ابن جبير: "ومن أعظم ما مني به أهل هذه الجزيرة أن الرجل ربما غضب على ابنه أو على زوجه أو تغضب المرأة على ابنتها فتلحق المغضوب عليه أنفة تؤديه إلى التطارح في الكنيسة فيتنصر ويتعمد فلا يجد الأب للابن سبيلاً ولا الأم للبنت سبيلا."[٩٤] وفي هذا السياق، وكسبيل لإنقاذ البنات تحديدًا من الأذى العام أو التحول إلى النصرانية، يذكر ابن جبير أن أعجب ما شاهده من أحوال المسلمين في هذه الجزيرة مما " تقطع النفوس إشفاقًا وتذيب القلوب رأفةً وحنانًا، أن أحد أعيان هذه البلدة وجه ابنه إلى أحد أصحابنا الحجاج راغبًا في أن يقبل منه بنتا بكرًا صغيرة السن، قد زاهقت الإدراك، فإن رضيها تزوجها وإن لم يرضها زوجها ممَنْ رضي لها من أهل بلده، ويخرجها مع نفسه راضية بفراق أبيها وإخوتها طمعًا في التخلص من هذه الفئة ورغبة في الحصول في بلاده المسلمين"[٩٥]، ويذكر ابن جبير أنه وأصحابه أعانوا الرجل المرسلة إليه الصبية على الاقتناع بتزوجها لما في ذلك من خير الدنيا والآخرة، لكنه تساءل بحسرة واسى عن قدرة أهل الصبية على فراقها، بل تعجب من شأن الصبية وقبولها بفراق أهلها، ويختم بالدعاء لها بالتوفيق والستر وجمع الشمل،[٩٦] وكان هذا الحديث في شهر ذي الحجة من سنة ٥٨٠ للهجرة، الموافق لشهر مارس سنة ١١٨٥.

٢/٢- صور المرأة في رحلة عبد اللطيف البغدادي إلى مصر:

الشهرة الغالبة لعبد اللطيف البغدادي في أيامنا هي في الطب، بينما كان من العلماء الموسوعيين الذين ضربوا بسهم وافر في جملة من فنون العلم.[٩٧] تنقل البغدادي بين مدن إسلامية كثيرة هي على التوالي: الموصل، دمشق، عكا، القاهرة، بيت المقدس، دمشق، القاهرة، بيت المقدس، دمشق، حلب، ثم تجول في عدد من بلاد الروم (أسيا الصغرى) ثم عاد ثانيةً إلى حلب ومنها عرج على بغداد في طريقه إلى مكة للحج، لكنه في بغداد مرض ومات ودفن بجوار والده، سنة (٦٢٦هـ/١٢٣١م). وقد أهلته شهرته العلمية للقرب من أرباب الدولة وكبرائها ومنهم السلطان صلاح الدين الأيوبي وبنيه. كتب عبد اللطيف البغدادي في فنون كثيرة هي الحديث واللغة والبلاغة والتاريخ والطب والفلسفة والنبات وأغراض علمية أخرى[٩٨]، ومن بينها كتابه قيد الدرس "كتاب الإفادة والاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر"، وهو كتاب خص به مشاهداته بأرض مصر فدخل مدخل كتب الرحلة. ولأن البغدادي زار مصر مرتين فهمنا أن نحدد تواريخ إقامته بمصر لعلاقة ذلك بمشاهداته هناك، فقد كان شاهدًا

على سنة الجوع والقحط التي أكل فيها الناس بعضهم بعضا كما ذكرت كتب التاريخ وعاينها هو بنفسه.

زار البغدادي مصر مرتين، كانت المرة الأولى سنة (٥٨٧هـ/١١٩١م)، عاد بعدها إلى دمشق ومكث هناك يعلم في مساجدها مقربًا من صلاح الدين الأيوبي وبنيه، أما المرة الثانية فكانت بعد موت صلاح الدين الأيوبي سنة (٥٨٩هـ/١١٩٣م)، وحصول نزاع بين أبنائه على خلافته، وقد جاء ابنه الملك العزيز إلى دمشق لإخضاع أخيه الملك سنة (٥٩٠هـ/١١٩٤م)، ولم ينجح الحصار[٩٩]. ويذكر البغدادي أنه خرج إلى معسكر الملك العزيز ثم رافقه إلى القاهرة، وقد تولى الملك العزيز حكم مصر بعد أبيه صلاح الدين من صفر سنة (٥٨٩هـ/١١٩٣م) وتوفي سنة (٥٩٥هـ/١١٩٩م)، وبما أن حملة الملك العزيز على أخيه في دمشق قد جرت سنة (٥٩٠هـ/١١٩٤م)، فإن إقامة البغدادي الثانية في مصر قد امتدت عشر سنوات على الأقل، ولا توجد معلومات حول تاريخ خروجه من مصر، لكن ذكر أنه فرغ من تأليف كتابه قيد الدرس سنة ٦٠٠ للهجرة. وفي هذه السنوات العشر كان الملك العادل، شقيق صلاح الدين هو صاحب الملك وصاحب الكلمة العليا بعد أن تمكن من التخلص من أبناء أخيه صلاح الدين الأيوبي.

في الإقامة الثانية في مصر تمكن البغدادي من التعرف على مصر وشعبها وتاريخها ونباتها وتراثها المادي والمعنوي وسجل في كتابه المذكور كل ذلك بدقة العالم وتفسيراته التي تظهر عصرية جدًا بالقياس إلى زمنه. ويهمنا التركيز على ما اتصل بالمرأة من مشاهدات البغدادي، وهي مشاهدات اجتماعية عامة لا تخص المرأة وحدها، لاسيما تلك المشاهدات التي حصلها في سنة (٥٩٧هـ/١٢٠١م)، عام نقصان النيل، وعام القحط والشدة وعام أكل الناس بعضهم بعضا. وقد سجل المؤرخون المعاصرون أحوال هذا العام في مصر وذكروا صراحة أن الرجل كان "يذبح ولده الصغير وتساعده أمه على طبخه وشيه (..)، وكان الرجل يدعو صديقه وأحب الناس إليه إلى منزله ليضيفه فيذبحه ويأكله"،[١٠٠] فإن كان المؤرخون قد وصلتهم أخبار القحط والجوع والفظائع البشرية رواية فإن البغدادي قد سجل صورًا للإنسان فاجعة ومستبشعة تقشعر لها الأرواح والأفئدة، وبين حال الإنسان وفسره حين يعضه الجوع المهدد بالهلاك. لقد أكل الإنسان لحم أخيه الإنسان وتشكلت العصابات المختلفة لخطف الآدميين وبيع لحومهم. وتبرز للمرأة في أوصاف البغدادي في هذه الظروف الاستثنائية صور مخالفة لصورتها المتواترة في التاريخ أو المتخيل الإنساني، فهي في سنة القحط والجوع ليست جنسًا لطيفًا، ولا كتلة حنان ولا أما رؤوما، بل مثلها مثل الرجل آكلة للحم الآدميين وفيهم زوجها وحفيدها وابنها.

قدم البغدادي مشاهداته ومسموعاته الموثوقة بلغة واضحة ومباشرة، ولم يكتف بتقديم المشاهدات بل حاول تفسير ما يحدث على نحو علمي، فذكر أن ما يستبشعه الإنسان أول الأمر ويستفظعه يغدو بتكراره والقرب منه والاعتياد عليه أمرًا مألوفًا، فيسقط حينئذ التعجب والاستبشاع ولا يستهجن الكلام فيه بعد ذلك أو الاستماع إليه.[١٠١] وقاعدة الألف والاعتياد مع الحاجة إلى مدافعة الجوع صونًا للحياة هي المعتمدة في شروحه لفهم مسالك الناس للبقاء أحياء في عام القحط الشديد هذا.

ذكر البغدادي أنه رأى امرأة "يسحبها الرعاع في السوق وقد ظفر معها بصغير مشوي تأكل منه، وأهل السوق ذاهلون عنها ومقبلون على شؤونهم وليس فيهم من يعجب لذلك أو ينكره"، وذكر أخرى كانت تلاعب فطيمًا فاستغلت غفلتها عنه صعلوكة "فبقرت بطنه وجعلت تأكل منه نيًا"، وذكر ما سمعه من نساء وأنه يعتدى عليهن "لاقتناص أولادهن ويحامين عنهم بجهدهن"، ورأى مع امرأة طفلاً لحيمًا فخاف عليه وأوصى أمه بحفظه فأخبرته أن رجلاً جافًا حاول اختطاف الطفل منها فترامت على الولد دفاعًا عنه حتى قدم فارس وطرد المهاجم عنها،[١٠٢] وذكر أن الرجال والنساء يتصيدون أطفال الشوارع المنبثين ممَنْ لم يبق له كفيل ولا حارس فيتغذون بهم، والذين أمكن إنقاذهم من هؤلاء الأطفال إنما كانوا أولئك الذين تحتفظ بهم النساء، والبغدادي لا يرجع ذلك إلى رقة أو رحمة، بل إلى كون النساء "أقل حيلة من الرجال وأضعف عن التباعد والاستتار".[١٠٣] ولم يذكر البغدادي شيئًا من جهود الدولة الأيوبية لمساعدة الناس في تجاوز أزمتهم، لكنه أشار فقط إلى جهودها في محاربة ظاهرة أكل لحوم البشر ومن ذلك إحراق ثلاثين امرأة في أيام يسيرة وكل منها تقر أنها أكلت جماعة من الناس. كما رأى البغدادي امرأة "أحضرت إلى الوالي وفي عنقها طفل شوي فضربت أكثر من مائتي سوط على أن تقر فلا تحير جوابًا، بل تجدها قد انخلعت عن الطباع البشرية، ثم سحبت فماتت، وإذا أحرق آكلٌ أصبح وقد صار مأكولاً لأنه يعود شواء ويستغنى عن طبخه".[١٠٤]

وذكر البغدادي حيل الإيقاع بالناس لاستقدامهم إلى البيوت ثم ذبحهم وأكلهم، وكان الأطباء بين هؤلاء الذين يستدرجون، ومن ذلك ما ذكر أن امرأة أعطت طبيبًا "درهمين على أن يصحبها إلى مريضها، فلما توغلت به مضايق الطرق استراب وامتنع عنها وشنع عليها فتركت درهميها".[١٠٥] وسجل البغدادي ما سمع من الوالي وأن امرأة أتته سافرة مذعورة، وهي إشارة إلى الفظاعة وهول الأمر وإلا لتنقبت وخرجت، فذكرت للوالي أن قوما استدعوها وقدموا لها صحنًا فيه لحم مطبوخ ومتبل، فألفته مباينًا للحم المعهود فتقززت منه، ثم استفردت ببنت صغيرة في البيت فسألتها عن اللحم، فقالت "إنها فلانة السمينة، دخلت لتزورنا فذبحها أبي وها هي معلقة إربًا" ثم أمر الوالي بمهاجمة المنزل وهرب صاحبه، ثم صانع عن نفسه في خفية بثلاثمائة دينار ليحقن بذلك دمه".[١٠٦]

وذكر أن امرأة ذات مال ويسار كانت حاملاً، وزوجها غائب عنها، فاشتهت من طبيخ الجيران وقد شمته، وكان صعاليك يجاورونها، فلما ذاقت من طبخهم ألفته لذيذًا فطلبت المزيد، فباحوا لها بالسر وأنه لحم بشري، "فواطأتهم على أن يتصيدوا لها الصغار وتجزل لهم العطاء، فلما تكرر ذلك منها ضَرِيَتْ وغلبت عليها الطباع السبعية

وشى بها جواريها خوفًا منها، فهجم عليها ووجد عندها من اللحم والعظام ما يشهد بصحة ذلك فحبست مقيدة وأرجئ قتلها احترامًا لزوجها وإبقاء على الولد في جوفها".[١٠٧] وروى البغدادي سماعًا عن رجل مر بامرأة حبشية (تجربة)، وبين يديها ميت قد انتفخ وتفجر وهي تأكل من أفخاذه، فأنكر عليها الرجل ذلك فزعمت أنه زوجها،" ويضيف البغدادي، أنه "كثيرًا ما يدعي الآكل أن المأكولات ولده أو زوجه أو نحو ذلك ورئي مع عجوز صغير تأكله فاعتذرت بأن قالت إنما هو ولد ابنتي وليس بأجنبي مني ولأن آكله أنا خير من يأكله غيري".[١٠٨] ولا يعلق البغدادي على هذا، ولكن يستفاد من السياق كأن الاعتذار بالقرابة لأكل اللحم البشري يعفي عن الاستبشاع والعقوبة.

وأورد البغدادي أنه كثيرا ما كانت المرأة تتخلص من صبيتها في الزحام فيتضورون حتى يموتوا، وأن بيع الأحرار وصغار الفتيات قد شاع وأن الجارية (الصبية) كانت تباع بدراهم معدودة، وأنه هو شخصيًا عُرضت عليه صبيتان للشراء بدينار واحد، ورأى مرة فتاتين إحداهما بكر ينادى عليها بأحد عشر درهما، وأن امرأة سألته أن يشتري ابنتها بخمسة دراهم فعرَّفها أن ذلك حرام فقالت "خذها هدية"، وأنه كثيرًا ما شاهد النساء والولدان الذين فيهم صباحة يترامون على الناس بأن يشتروهم أو يبيعوهم.[١٠٩] واستغرب البغدادي وسط كل هذا الجوع والمآسي البشرية أن يرى أناسًا اتخذوا من بيع الأحرار تجارة للإثراء ومارسوا العهر بالنساء "حتى أن منهم مَنْ يزعم أنه افتض خمسين بكرًا ومنهم مَنْ يقول سبعين" وبمبلغ زهيد لا يذكر.[١١٠]

ولا ينسى البغدادي أن يؤكد أن ما قصه هو مما شاهد وسمع، وأنه لو أخذ في قص المزيد لاتهم بالهذر، وأن كل ما حكاه هي مشاهداته التلقائية التي لم يتقصدها ولم يتتبعها، وإنما رأى وسمع بالمصادفة وأنه كثيرًا ما كان يفر من المشاهدة استبشاعًا للمناظر، كما أنه يرى أن مقدار ما قدم من مشاهدات على أكل لحوم البشر كاف وإن كان مقصرًا لكثرة ما شاهد وسمع.[١١١] وقد استمرت هذا الحال حتى منتصف العام التالي (٥٩٨هـ/١٢٠٢م)، "فتناقص أكل بني آدم ثم انقطع خبره"[١١٢]، وهو حال مرتبط بماء النيل وحصول الزراعات الوافرة.

هذه صور إنسانية مروعة تشهد على حال الإنسان في زمن جوع يهدد بقاءه، وقد حاول معد كتاب البغدادي النأي بأهل مصر عن هذه الفظاعات ونسبتها لأفارقة سود قدموا بثقافاتهم إلى مصر، والتقط إشارات نزرة وردت عند البغدادي للتدليل على أن أكل لحوم البشر قام به غرباء وليسوا أهل مصر، وهي محاولة على تواضعها العلمي، لا تغير شيئًا من حال الإنسان، مطلق الإنسان حين يتيقن من الموت جوعًا. صحيح أن البغدادي أشار إلى أن خلقًا عظيمًا من أهل السواد والأرياف دخل القاهرة هربًا من الجوع، وهي إشارة إلى فلاحين وأفارقة سود، لكنه ذكر أيضًا أن خلقا آخر هجر مصر وذهب إلى الشام والمغرب والعراق واليمن، لأن المجاعة أدركت مصر كلها وتواترت الأخبار بانتشار الموت وكثرة الأكفان وأكل لحوم البشر من كل مكان.[١١٣]

وفي هذه الأحوال لا يصبح البحث عن هوية آكلي البشر مجديًا لاسيما وأنه حال طارئ ولم يكن عادة لأحد في مصر، لكن الضرورة غيرت طبع المضطر فألف المستبشع. والبغدادي لم يقم بتحديد أكلة لحوم البشر، ولا بوصفهم وتحديد أعراقهم، لكنه على الأقل كان يشير إلى جموع الفقراء التي تضطر لفعل ذلك دون بيان لشيء آخر، فالجوع كافر كما يقال.

وما يستحق النقاش حقًا هو المدى الذي ذهبت إليه هذه الظاهرة ومَنْ أصابت؟ ومن خلال أوصاف البغدادي يظهر بوضوح أنه كان شاهدًا متفحصًا لما يحدث دون أن يصيبه شيء من أزمة القحط وارتفاع الأسعار. فهو من الأعيان وقريبًا من أرباب الدولة، وقد ذكر أن الملك العزيز، ابن صلاح الدين حاكم مصر، أعطاه ما يكفيه وزيادة من الأرزاق، ويبدو أن حاله استمر في اليسر والرخاء والقرب من أرباب الدولة حتى في زمن الملك العادل الذي ورث الدولة الأيوبية من سنة (٥٩٥ – ٦١٥هـ/ ١١٩٩-١٢١٨م)، وفي زمنه وقع هذا القحط والغلاء وبلاد الشام ومصر تواجه الحملات الصليبية برًا وبحرًا. ويستفاد مما رواه أن حالات كثيرة لأكل البشر قد وقعت وأن عصابات للخطف والاتجار بلحوم البشر قد تشكلت، وهذا واقع تاريخي أثبته غير مؤرخ، ومع ذلك ينبغي الحذر من تعميم الظاهرة وأنها قد امتدت في المجتمع طولاً وعرضًا، فحالات الاستبشاع التي رويت، وأشكال الحيل والتخفي لممارسة القتل والأكل والبيع، ثم دور الدولة الأيوبية في متابعة أكلة لحوم البشر ومعاقبتهم بالقتل حرقًا، يشهد على وجود ظاهرة أكل لحوم البشر كما يشهد على محدوديتها رغم ذلك، وان انتشارها قد وقع بين من أعيتهم الحيل للبقاء وهم كُثر، لكن هناك أيضًا أوصاف لمَنْ كان يموت جوعًا وترى جثثهم الكثيرة وقد سقطت في الشوارع وهو ما يعزز الرأي بأن انتشار أخبار الظاهرة بحكم بشاعتها واستثنائيتها كانت شائعة، لكنها لا تعني قط شيوع الظاهرة نفسها في المجتمع المصري يومئذ. ومع ذلك ترد حكاية عن امرأة كانت تأكل حفيدها بالسوق وأنها دافعت المحتجين عليها بأنها تأكل حفيدها وأنها أولى به من غيره، وهو ما يشير إلى أن الدولة الأيوبية، وقد تركت الناس لمصائرهم دون تقديم عون يذكر، ربما غضت الطرف عن حالات فردية كهذه وعاقبت فقط مَنْ تحول إلى مجرم يقتل الغرباء أو يتاجر بلحوم البشر، وهو ما تفيده رواية المرأة التي جاءت إلى الوالي سافرة، أو حكاية المرأة الحامل ذات المال التي استطابت لحم الآدميين فأعطت جيرانها الصعاليك نقودًا كي يتصيدوا لها صبية صغارًا.

وأيًا كان حال الظاهرة عامًا أو محدودًا؛ فالمهم هو ما تصنعه بالبشر أيام القحط وغلاء الأسعار والخوف من الهلاك جوعًا، وكيف تؤدي إلى تغيير طبائع المحتاجين للقوت من الفقراء، فظهر الرجال والنساء في حالة حيوانية بدائية يأكلون ذويهم وأبناءهم دفعًا للموت جوعًا.

٣/٢- صور المرأة في كتاب الاعتبار لأسامة ابن منقذ:

أسامة ابن منقذ (٤٨٨-٥٨٤/ ١٠٩٥-١١٨٨) رجل من أهل الشام، بها ولد وعاش ومات، لكنه ارتحل في بلاد الشام والعراق ومصر، فشاهد واختبر كثيرا من أوضاعها الاجتماعية الحربية والسياسية، لاسيما وقد عاش ابن منقذ في القرن السادس الهجري، قرن الحروب الصليبية. وما يميز سيرة الرجل وكتاباته انتسابه إلى بيت علم وحكم فهو من شيزر وقد كانت إمارة صغيرة شمال غرب حماة بسوريا يحكمها عمه، وهو ما يعني توفر الثروة والجاه والوقت لتعلم العلوم والتدرب على أشكال الفروسية، وهكذا جمع ابن منقذ بين العلم والأدب والفروسية، فقد شب شجاعًا وكان محاربًا مقدامًا في الجيوش الإسلامية التي تصدت للغزو الصليبي وقربه السلطان صلاح الدين الأيوبي فترة منه، ووجد ابن منقذ وسط الترحال ومصائر زمانه المتقلبة وقتا لتأليف الكتب المهمة ومنها كتاب الاعتبار قيد الدرس[١١٤]. وبسبب معاصرته لشطر من سيرة الحروب الصليبية فقد أهتم المؤرخون في الشرق والغرب بكتاباته وبكتابه الاعتبار على وجه الخصوص فترجم إلى لغات عدة وغدا مصدرًا أساسًا لفهم الجوانب الاجتماعية لبلاد الشام في القرن السادس الهجري[١١٥].

ويُعَدّ الكتاب سيرة ذاتية لابن منقذ، يختلف عن باقي كتبه الكثيرة في الأدب والتاريخ، ولذلك استحق أن يكون ضمن كتب الرحلة، بميزات خاصة، وهي أن الرجل لم يكن رحَّالة عابرًا يرصد ما يصادفه في الطريق فقط، لكنه وبحكم المولد والمنشأ والمراس الشخصي في الأحداث، فقد تمكن من عرض مشاهداته وخبراته في سياق زمني متصل جعل مشاهداته ذات قيمة خاصة. وفيما يتصل بصور المرأة في مشاهدات أسامة بن منقذ فإنها مميزة جدًا وتعكس بأصالة وقع زمن الحروب الصليبية على المرأة، فجاءت صورها منسجمة مع حياة ابن منقذ وروح الزمن. وفي كتابه بعنوان "الجغرافيون والرحَّالة المسلمون في بلاد الشام زمن الحروب الصليبية"، التفت الدكتور عوض لصور المرأة الواردة في كتاب الاعتبار، وأبرز أدوار المرأة التي سجلها ابن منقذ ضمن مشاهداته في سياق المرحلة وهي مرحلة الحروب الصليبية ووجود إمارات صليبية في بلاد الشام.[١١٦] ومع ذلك نود عرض صور المرأة في كتاب الاعتبار بشمول وتفصيل يتفق وأغراض هذا البحث ومن زاوية النظر الفلسفي لصور المرأة، وليس التاريخي والمقارن كما وردت في الكتاب المذكور.

أورد ابن منقذ مشاهدات متنوعة، تظهر المرأة محاربة وذكية وغيورة على عرضها، كما تظهرها ساحرة وعابثة، وتفيد مشاهدات ابن منقذ أن المرأة في ظروف الحرب تتكيف مع ظرفها وتظهر بصور جديدة تجاوز صورتها المتواترة بوصفها أما وربة بيت وتتصف بالرقة والضعف وقلة الحيلة. ولأن نساء الإفرنج كن حاضرات في بلاد الشام وفي مرمى مشاهداته وتجاربه أو مسموعاته الموثقة، فإن مشاهداته وأحكامه تكتسب أهمية استثنائية تبرز من خلالها صورًا للمرأة تشهد على أثر الثقافة في تشكيل صور المرأة والأحكام الاجتماعية المتصلة بها.

أورد ابن منقذ حكاية امرأة كانت تعمل في السحر وتقف بين صفوف المتحاربين بشجاعة ومعها وعاء ماء تستقي منه وتسقي غيرها،[١١٧] وأورد حكايات عن نساء شيزر، مدينته ومسقط رأسه، بعضهن على صلة قرابة معه كجدته وأمه وأخريات من غير ذوي قرابته. حكى عن جدته التي كانت أثقب منه نظرًا في تقييمها لعلاقة عمه، حاكم إمارة شيزر، به، بعد بروز أفعال مميزة لأسامة،[١١٨] كما حكى عن أمه ورباطة جأشها، وكيف أخذت توزع سلاحه المختزن في البيت على المحاربين، وقد ظنته مقتولاً، ثم أجلست أخته الكبرى في شرفة القلعة وكانت قريبة منها بقصد قذفها إلى الموت إذا دنا الخصم منها منتصرًا كي لا تقع في الأسر ويتعرض شرفها للمهانة والابتذال،[١١٩] وأورد أخبار نساء لبسن ثياب الحرب وتلثمن وخرجن للقتال، يستوي في ذلك الشابة والعجوز،[١٢٠] وابتدأ عبارته بالقول "وشاهدت من نخوة النساء عجبًا" وهو يروي قصة مسلمة تقتل مع أخيها زوجها لتعاونه مع الإفرنج ضد المسلمين بعد أن يئست من صلاحه بالنصح، وقد فرت بعدئذ إلى شيزر، وسمع ابن منقذ منها قولها "غضبت للمسلمين مما كان يفعل بهم هذا الكافر"،[١٢١] وتحدث عن شيزرية تمكنت بالحيلة، في سياق معركة ناشبة، من أسر ثلاثة من جنود الإفرنج، وبعد أن سلبتهم ما يصلح لها، استدعت جيرانها فأتوا فقتلوهم،[١٢٢] وأورد حكاية لفتاة كردية مسلمة وقعت في أسر الإفرنج، فتكدر الأب وتوسوس عليها، لكن لوعة أبيها سكنت حين وجدها غارقة في النهر بعد أن قذفت بنفسها من حصان الإفرنجي صونا لعرضها.[١٢٣] وقد شهد ابن منقذ لنخوة النساء هذه ورآها نخوة أشد من نخوة الرجال، كما شهد للمرأة بالشجاعة وأصالة الرأي وهو يسرد حكاياتهن في مواقف مختلفة ويقول هؤلاء هن أمهات الرجال.[١٢٤]

ومع أن السبي ووقوع النساء في الأسر والعبودية من نواتج الهزيمة المألوفة عند كل الأطراف إلا أن وقوع المرأة في الأسر عند العرب كان من أشد المصائب جرحًا لكرامتهم، فالهزيمة تهون وتحويل الهزيمة إلى نصر ممكن، لكن وقوع المرأة في الأسر وتخيل عرضها يهان وشرفها يدنس يعد وخزًا قاسيًا في القلب. وغالبا ما تستسلم المرأة لقدرها، إلا من تجد منهن حيلة وعزمًا لإنقاذ الشرف الاجتماعي لها وعائلتها من التدنيس كقصة الفتاة الكردية المار ذكرها أو التدبير الذي استعدت به أم أسامة لمنع وقوع ابنتها في الأسر، وهي حوادث شاهدة على قيمة الشرف الاجتماعي واستعداد الأمهات لتقبل مصيبة الموت على تقبل مصيبة الشرف المهان.

كل هذا والمسلمون أنفسهم كانوا يمارسون السلوك نفسه إزاء النساء الأسيرات عندهم من بنات الإفرنج، لكن ابن منقذ وقد عاصر نساء الإفرنج وخبر أخلاقهن، لم يقر لهن بفضيلة، بل يصرح بأنهن جنس ملعون، وقد ورد هذا التعليق في سياق قصة فتاة إفرنجية جميلة وقعت في الأسر وكانت بين جواري والده، فاستحسنها أبوه وأصلح من شأنها وأهداها إلى أمير قلعة جعبر،[١٢٥] فاستحسنها الأمير وأنجبت له ولدًا صيره فيما بعد ولي عهده فصار أمير القلعة بعد موت

أبيه، ثم يستغرب ابن منقذ كيف تترك الأم عز ولدها الأمير وتتواطأ مع جماعة لتفر من القلعة وتلحق ببعض قومها في منطقة سروج، (بلدة قريبة من حرّان)، وتتزوج بإفرنجي إسكافي، وابنها صاحب قلعة جعبر.[١٢٦]

وقد سجل ابن منقذ مشاهدات مهمة تفصح عن الفوارق الثقافية بين المسلمين والإفرنج، وهي فوارق ما تزال بأحكامها القديمة ممتدة إلى اليوم. فهو يرى أن ليس للإفرنج غيرة على نسائهم، وليس عندهم شيء من النخوة، ويدلل على ذلك بعرض مشاهد اجتماعية عايشها أو سمع عنها من ثقات. من ذلك ما رواه عن شيوع حديث رجال الإفرنج مع زوجات غيرهم بحضرة الأزواج، بل ربما انفرد الرجل الغريب بالحديث مع الزوجة والزوج واقف ينتظر فراغها من الحديث "فإذا طولت عليه خلّاها مع المتحدث ومضى"[١٢٧]، ويظهر ابن منقذ عجبه من قلة الغيرة حين أورد قصة بائع خمر في بيت المقدس وجد رجلاً مع امرأته في الفراش، فكان أقصى ما قام به بعد حوار مع الرجل عن سبب وجوده في فراش زوجته، أن قال "وحق ديني إن عدت فعلت كذا تخاصمت أنا وأنت."[١٢٨] ويعلق ابن منقذ على هذا الموقف قائلاً "فكان هذا نكيره ومبلغ غيرته."[١٢٩]

وفي السياق نفسه ترد قصة حمَّامي في المعرة (معرة النعمان) كان على صلة بابن منقذ، فيها أن فارسًا إفرنجيًا دخل الحمام فتعرى واستغرب من إزار الحمَّامي الذي كان يغطي به عورته، فنزعه الإفرنجي عنه وبدت عورة الحمَّامي وكان حديث عهد بحلق عانته، فاستغرب الإفرنجي من ذلك ومد يده إلى عانة الحمَّامي فأعجبه ملمسها ومنظرها، فطلب من الحمَّامي أن يحلق له عانته فانبطح على ظهره وتم ما أراد، وحين فرغ الحمَّامي من ذلك، نادى الرجل زوجته فدخلت الحمام وطلب زوجها من الحمَّامي أن يصنع بعانتها ما صنع بعانته، فاستلقت على ظهرها وتم ما أراد وزوجها ينظر، وزاد على ذلك تقديم الشكر للحمَّامي وأجرة عمله.[١٣٠] ويعلق ابن منقذ على ذلك "فانظر إلى هذا الاختلاف العظيم، ما فيهم غيرة ولا نخوة،"[١٣١] ثم روى أنه دخل حمَّاما في مدينة صور ورأى امرأة في الحمام مع أبيها وقد برر وجودها معه في الحمام بأن أمها ماتت وليس لها مَنْ يغسلها فاصطحبها للحمام وهي شابة نظرة، وقد علق ابن منقذ على ذلك ساخرًا، "جيد ما عملت، هذا لك فيه ثواب".[١٣٢]

والخلاصة؛ أن ابن منقذ يقدم للنساء المسلمات صورًا مشرفة ويعلن صراحة تقديره للنساء وتدبيرهن ونخوتهن، ولا يرى ذلك استثناء بل يراه أصلاً من أصول شخصيتهن، فهو يقول "وما ينكر للنساء الكرام الأنفة والنخوة والإصابة في الرأي"[١٣٣]، وكأنه بهذا التصريح يريد مدافعة السائد من الآراء حول المرأة وتأكيد قدرة النساء على الإصابة في الرأي، ومقابل هذا الرأي الصريح المادح للمرأة يقدح ابن منقذ بأخلاق الإفرنج وخلوها من النخوة والغيرة وهو رأي مشهور لابن منقذ يقوم على تحكيم الثقافة الخاصة وجعلها معيارًا للحكم على ما يخالفها لاسيما فيما يتعلق بقضايا العرض والشرف وعلاقات المرأة بالرجل، ومن المدهش حقًا أن الفروق الثقافية المتجلية في صور المرأة في المجالين الثقافيين الإسلامي والأوروبي المسيحي ما تزال معظم عناصرها ممتدة إلى اليوم.

خلاصة

كانت تلك رحلة في كتب الرحلة المتباعدة أزمنة وأوطانًا، لكن خيطها الناظم الموجه هو المرأة بصورها المتنوعة في الثقافات التي اجتازها الرحَّالة ودونوا عنها ما بدا لهم مستحقا للتدوين، ومعظمه كما رأينا يقع في مفترق الثقافات، ولا نود بعد هذه الرحلة أن نكرر ما ذكر، لكن الإشارة واجبة إلى المشترك الإنساني الذي برز في كتب الرحلة متصلاً بالمرأة، وهو أن جميع الثقافات تنظر إلى الزنا بوصفه منكرًا وجريمة تستحق العقاب، لكنه في حالتين قُبِل ضمن شروط خاصة في ثقافتي الهند والصين، فمر بنا "ديوان الزوانى، و"قحاب البد"، وهي لا شك اصطلاحات عربية لمصطلحات لا ندري ما هي، وهل تحمل المعنى الذي تحمله الكلمتان العربيتان أم لا.

كما ظهرت المرأة في مناطق سكنى القبائل التركية، وبعض بلاد الهند وجزرها في صور أقل تحضرًا من صور المرأة في الحضارة الإسلامية عند مقارنة ما أورده أبو دُلَف الينبوعي وابن فضلان بما ورد من صور عند ابن جبير وابن منقذ، بينما تُعَدّ صور أكلة لحوم البشر التي أوردها البغدادي حالة استثنائية لا يقاس عليها. لكن صور الحضور الاجتماعي العام للمرأة في البلاد غير الإسلامية كان أكثف وأقل تعقيدًا من صور المرأة في البلاد الإسلامية التي يبدو أن ثقافة الحجاب كانت وما تزال تلعب دورًا في تقييد الحضور الاجتماعي للمرأة عن الناس والمجتمع، فلم يرد عنها إلا الاستثنائي والنادر. وتشابهت صور نساء جزر المحيط ببعض نساء مصر والبصرة من جهة الثراء والعمل بالتجارة، ولو أن ثراء نساء الجزر كان موضع اندهاش لضخامته كما ورد في صور سليمان التاجر.

ومع أنه لا يمكن مقارنة كل الصور ببعضها بحكم تباعد الأزمنة والأوطان وتنوع الثقافات، إلا أن صور المرأة في التاريخ تبقى إغراءً علميًا مفيدًا، يمكن معه إبراز السمات الثقافية المتنوعة ورصد ديمومتها أو انقراضها، ومنها السمات الثقافية التي عبر عنها ابن منقذ إزاء نساء الإفرنج أو بعض أحكام ابن جبير إزاء صورة المرأة المسلمة أو المرأة الإفرنجية، فهي في العموم ما تزال ممتدة إلى اليوم. وهناك صور أخرى اختفت نهائيًا، لاسيما أوصاف ابن جبير للعمرة الرجبية وما يجري فيها، وما رصده من مواكب الحاجات الأميرات يومئذ.

وقد أفاد تتبع صور المرأة ليس فقط في جمع الصور المتفرقة في صعيد واحد بل رصد بعض التحولات التاريخية وأبرزها التحول الذي طرأ على أواسط آسيا، وتحديدا البلاد التي زارها ابن فضلان ونقل إلينا صورا للمرأة لافتة جدًا، وهي صور لم ترد بعدئذ في رحلة الغرناطي أبي حامد الأندلسي الذي زار تلك الأصقاع بعد قرن من الزمان ومكث فيها ثلاثة عقود. لم يذكر أبو حامد شيئا مما ذكره ابن فضلان قبله ومنه سباحة الرجال والنساء عراة في النهر، وأن المرأة عند بعض قبائل الأتراك لا تحتجب من الرجال ولا تستر شيئًا من جسدها أمامهم. وانعدام هذه الأوصاف اللافتة لأي مسلم عند

الغرناطي وحضور أوصاف الجواري وأسواقهن بدلاً من ذلك يفيد بأن تلك الجهات في أواسط آسيا قد تغيرت سماتها الثقافية خلال قرن من الزمان وأن كثيرًا من ملامح الثقافة الإسلامية حل محل السمات التي صادفها ابن فضلان.

ولابد من تسجيل ملاحظة أخيرة، وهي أنه من خلال رصد صور المرأة في الكتب المشار إليها، أمكن استنتاج أن المشاهدات المتعلقة بالمرأة إجمالاً قليلة في كتب الرحلة قياسًا بحجم الكتاب ومجال الرحلة وطبيعة المشاهدات المروية، وإن اختلفت من كتاب لآخر كثرة وقلة، وقد اقتضى هذا الاستنتاج البحث عن تفسير، ورأينا أن نلتمس التفسير في أن ما تم تسجيله إنما كان من الغريب والعجيب واللافت، وفي إطار التباين الثقافي للمجتمعات ومستوى حضور المرأة في أنشطتها العامة، ولعل في وجهة الرحلة ونية الرحَّالة وثقافته، وربما ترفعه عن أخبار النساء وهو مكون ثقافي ثاو في البنية الذهنية، ألمح إليه ابن جبير عرضا، ما يشرح قلة صور المرأة في هذا الكتاب وكثرتها في كتاب آخر. وفي الختام يؤمل أن يسهم هذا البحث في تعزيز الجهود الرامية إلى مراجعات ثقافية أصيلة تتمكن من خلالها المجتمعات من الاعتياد على الحضور البديهي للمرأة في مختلف مناحي الحياة دون إلاَّ .. ولكن..

الهَوامِشُ:

(١) للمزيد حول جنس أدب الرحلة والعلاقة بين الرحَّالة ومشاهداته وعلاقة الوعي الثقافي بطبيعة المشاهدات المسجلة انظر: العلوي، سعيد بن سعيد: **أوروبا في مرآة المرحلة: صورة الآخر في الرحلة المغربية المعاصرة**، أبو ظبي: دار السويدي للنشر والتوزيع، ٢٠٠٦، ص ١١-١٩، ٩٩-١٠٠.

(٢) الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر، **البيان والتبيين**: ج٢، ط ٩، تحقيق عبد السلام هارون، القاهرة، مكتبة الخانجي، ١٩٨٨، ص ١١٢-١١٣.

(٣) عرض الحبشي في مقدمة الكتاب جهود السابقين عليه في إخراج المخطوطات وتحقيقها وترجمتها، ورأى أنه يمكنه إضافة شيء إلى جهود السابقين.

(٤) انظر مقدمة المحقق في : ناصر خسرو، أبو معين: **سفر نامة: رحلة ناصر خسرو إلى لبنان وفلسطين ومصر والجزيرة العربية في القرن الخامس الهجري**، نقلها إلى العربية يحيى الخشاب، بيروت: دار الكتاب الجديد،١٩٨٢، ص٥-٣٢.

(٥) سفر نامة، ص ٨٠، ٨٩، ١٠٤، ١٠٥.

(٦) أبو حامد الغرناطي، محمد: **تحفة الألباب ونخبة الإعجاب**، أبو ظبي، دار السويدي للنشر والتوزيع، ٢٠٠٣، ص١٤٠.

(٧) شيزر قلعة تشتمل على كورة من كور الشام، قرب المعرة وبينها وبين حماة مسير يوم واحد وهي من أعمال حمص، وكان ملوكها الأمراء من بني منقذ، انظر: الحموي، ياقوت: **معجم البلدان**، ج٣، بيروت: دار صادرن (د.ت) ص٣٨٣.

(٨) ابن خردذابه، أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله: **المسالك والممالك**، ليدن: مطبعة بريل، ١٨٨٩، ص ١٦٢ - ١٧٠ . وعنه نقل الاصطخري في كتابه المسلك والممالك، وكذلك فعل ياقوت في معجم الأدباء.

(٩) الرامهرمزي، بزرك بن شهريار الناخذاه: **عجائب الهند**، تحقيق عبد الله الحبشي، أبو ظبي: منشورات المجمع الثقافي، ٢٠٠٠، ص ٣٩-٤١ ، ٤٢-٤٥، ١٣٦.

(١٠) التفت الدارسون إلى رحلة سليمان التاجر، لكن التداخل بين نص سليمان التاجر وإضافات أبي زيد السيرافي سبب إرباكا في العناوين المقترحة للرحلة، من بينها مثلا ما أخرجه المريخي في كتاب مستقل لرحلة سليمان التاجر سماه " عجائب الدنيا وقياس البلدان، وهي عبارة وردت في مقدمة أبي زيد السيرافي للمضموم من أخبار الرحلتين لسليمان التاجر وابن وهب القرشي. أما مخطوط سليمان التاجر فمبتور كما تظهر الصفحة الأولى. وقد اهتم الاستشراق الغربي بهذه الرحلات وحققها وترجمها ضمن عناوين مختلفة. ولأغراض هذا البحث ستتم الإحالة إلى كتاب الرحلتين بعنوان رحلة السيرافي بملحقاته وتهذيباته. ولمعرفة المزيد عن سليمان التاجر ورحلته وتطور معرفتنا بكتابه وترجماته واهتمام المستشرقين به، انظر: حسن، زكي محمد، **الرحَّالة المسلمون في العصور الوسطى**، بيروت، دار الرائد العربي، ١٩٨١، ص ٢٣-٢٥.

(١١) سليمان التاجر، **رحلة السيرافي**: تحقيق عبد الله الحبشي، أبو ظبي، المجمع الثقافي، ١٩٩٩، ص ١٧.

(١٢) **رحلة السيرافي**، ص ٢٠

(١٣) **رحلة السيرافي**، ص ٤٦.

(١٤) **رحلة السيرافي**، ص ٢١.

(١٥) **رحلة السيرافي**، ص ٢٧.

(١٦) **رحلة السيرافي**، ص ٣٢.

(١٧) **رحلة السيرافي**، ص ٣٥

(١٨) **رحلة السيرافي**، ص٤٨.

(١٩) **رحلة السيرافي**، ص٤٨.

(٢٠) **رحلة السيرافي**، ص٥٠.

(٢١) **رحلة السيرافي**، ص٥٧.

(٢٢) **رحلة السيرافي**، ص٨٥

(٢٣) هو أحمد بن فضلان بن العباس بن راشد بن حماد، ولمتابعة غموض شخصيته ونسبه ونسبة الكتاب إليه وترجمات كتابه واهتمام المستشرقين به انظر مقدمة المحقق: ابن فضلان، أحمد: **رسالة ابن فضلان**، تحقيق سامي الدهان، دمشق: مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق، ١٩٥٩ ص٣٧-٥١. وانظر كذلك: كراتشكوفسكي، أغناطيوس يوليا: **تاريخ الأدب الجغرافي**، ج١، القاهرة: لجنة التأليف والترجمة والنشر، (د.ت) ص١٨٦-١٨٧.

(٢٤) الصقالبة: مصطلح معرب من كلمة السلاف، ويشمل في الاستخدام الإسلامي الأقوام التي تعيش فيما يعرف اليوم بأوربا الشرقية، والصقالبة الذين عناهم ابن فضلان هنا هم (بلغار الفولجا) وهم أخلاط أنساب من الترك والسلاف وغيرهم تمكنوا من بناء مملكة واسعة عاصمتها "بلغار" على نهر الفولجا تقلبت بها الأحوال كغيرها من الممالك، وكانت وقت زيارة ابن فضلان لها مملكة كبيرة مستقلة، لكنها واقعة تحت جبروت مملكة الخزر القوية آنئذ كما تشير كتابات أوروبية، وكما يظهر من الإتاوات المستحقة لملك الخزر كما جاء في رسالة ابن فضلان وهي من بواعث العلاقة مع الخلافة العباسية وسبب هذه السفارة الدبلوماسية.

(٢٥) ابن رسته، أبو علي أحمد بن عمر: **الأعلاق النفيسة**، ليدن، مطبعة بريا، ١٨٩٢. ص١٤١

(٢٦) لا يعلم بالضبط متى أسلم أهل البلغار وهل كانوا جميعهم مسلمين أم اقتصر الأمر على الملك وحاشيته، وترجح الدراسات الحديثة أن الإسلام كان حديث عهد في بلاد البلغار قبل زيارة ابن فضلان لها. انظر: الرحّالة المسلمون في العصور الوسطى، ص٢٧. ثم إن هذا الرأي يتوافق مع مشاهدات ابن فضلان، وهذه المشاهدات لا تستقيم ورأي ابن رسته في "**الأعلاق النفيسة**" وفيه أن: "أكثرهم ينتحلون دين الإسلامي وفي محالهم مساجد ومكاتب ولهم مؤذنون وأئمة، وملابسهم شبيهة بملابس المسلمين ولهم مقابر مثل مقابر المسلمين. انظر: **الأعلاق النفيسة**، ص١٤١. وقد كان مهما بيان حال الإسلام في هذه الديار التي زارها ابن فضلان لتبرير إدراج نصه ضمن نصوص الرحلة خارج الديار الإسلامية ولفهم مشاهداته وأحكامه من ثم وأنها في الغالب تمت في بلاد غير إسلامية.

(٢٧) **رسالة ابن فضلان**، ص٦٨.

(٢٨) **رسالة ابن فضلان**، ص٩١-٩٢.

(٢٩) **رسالة ابن فضلان**، ص٩٢.

(٣٠) **رسالة ابن فضلان**، ص٩٣.

(٣١) **رسالة ابن فضلان** ص٩٣-٩٤.

(٣٢) **رسالة ابن فضلان** ص٩٤.

(٣٣) **رسالة ابن فضلان**، ص١١٥.

(٣٤) **رسالة ابن فضلان**، ص١٣٤.

(٣٥) **رسالة ابن فضلان**، ص١٤٤.

(٣٦) تعددت الآراء حول هؤلاء " الروس" الذين وصفهم ابن فضلان، ويذهب أكثر الدارسين إلى أن المقصود بالروس هم تجار البلاد الإسكندنافية القادمين من السويد والدانمارك تحديدًا ، والذين عرفوا "بالفايكنج"، لكن آراء أخرى تذهب إلى أن اصطلاح الروس في الاستخدام العربي ربما عنى تجار البحر عامة في آسيا الوسطى دون تحديد دقيق انظر:

J.E Montgomery: Ibn Fadlan and the Rusiyyah, Journal of Arabic and Islamic Studies, Edinburgh University Press: vol.3, 2000, pp.1-25.

(٣٧) **رسالة ابن فضلان**، ص١٥١.

(٣٨) **رسالة ابن فضلان**، ص١٥٧.

(٣٩) **رسالة ابن فضلان**، ص١٥٩.

(٤٠) لم تسعف قواميس اللغة في إعطاء معنى واضحا لكلمة " ملبن، لكن يستفاد من وصف قدمه عبد اللطيف البغدادي، في رحلته إلى مصر أنه لوح خشبي عريض في وسطه دائرة مفتوحة، وهذا معناه أن هذا الملبن يوضع على مصراعي باب أو قائمتين مثل المصراع، ثم تدخل الجارية من فتحته لتطل من خلالها على مشاهد الآخرة كما يزعمون. البغدادي، عبد اللطيف، **رحلة عبد اللطيف البغدادي في مصر**، إعداد، عبد الرحمن عبد الله الشيخ، ط٢، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٨، ص١١٦.

(٤١) **رسالة ابن فضلان**، ص١٦٠-١٦٢.

(٤٢) **تاريخ الأدب الجغرافي**، ص١٨٨.

(٤٣) ابن النديم، محمد بن إسحاق: **الفهرست**، تحقيق: رضا تجدد، ج١، طهران: طبع المحقق، ١٩٧١، ص٤١٠.

(٤٤) الثعالبي، عبد الملك بن محمد: **يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر**، تحقيق مفيد محمد قميحة، ج٣، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٨٣، ص٤١٣-٤١٤.

(٤٥) القزويني، زكريا بن محمد بن محمود: **آثار البلاد وأخبار العباد**، بيروت: دار صادر، ١٩٦٩، ص٥٨٩.

(٤٦) لمتابعة الرسالتين وأهميتهما وعلاقة الدراسات الاستشراقية بهما، انظر مقدمة المحقق، عسيري، مريزن سعيد: **الرسالة الأولى لأبي دُلَف مسعر بن المهلهل الخزرجي**، المتوفى أواخر الرابع الهجري، السعودية: مطبوعات جامعة أم القرى، ١٤١٥هـ، ص١٧-٣٤.

(٤٧) عن رحلة أبي دلف وخط سيرها ودراسات الاستشراق حولها انظر: **تاريخ الأدب الجغرافي**، ص١٨٨-١٩٢. وانظر كذلك بحثًا حديثًا أعده شاكر لعيبي يناقش فيه خط سير الرحلة ويستعرض طائفة قيمة من آراء الدارسين حول رحلة أبي دلف: لعيبي، شاكر: "**مقدمة لرحلتي أبي دلف مسعر بن مهلهل الخزرجي الينبوعي**"، مجلة الكوفة، عدد ٣، السنة الثانية، العراق، ٢٠١٣، ص٣٥-٥٦.

(٤٨) **الرسالة الأولى**، ص٤١.

(٤٩) **الرسالة الأولى**، ص٤٢.

(٥٠) **الرسالة الأولى**، ص٤٩.

(٥١) **الرسالة الأولى**، ص٥٠.

(٥٢) **الرسالة الأولى**، ص٥١.

(٥٣) **الرسالة الأولى**، ص٥٦.

(٥٤) اِشتهر كتاب رحلة ابن جبير بـ "رحلة ابن جبير" وهناك مسميات أصلية لهذه الرحلة هي "**كتاب اعتبار الناسك في ذكر الآثار الكريمة والمناسك**"، و"**تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار**".

(٥٥) وصفه ابن الخطيب بأنه "كان أديبًا بارعًا، شاعرًا مجيدًا، سنيًا فاضلاً، نزيه المهمة، سري النفسن كريم الأخلاق أنيق الطريقة، نظمه فائق ونثره بديع وكلامه المرسل سهل حسن وأغراضه جليلة ومحاسنه ضخمة وذكره شهير ورحلته نسيج وحدها، طارت كل مطار فضله بديع وورعه يتحقق وأعماله الصالحة تزكو". ابن الخطيب، لسان الدين: **الإحاطة في أخبار غرناطة**، تحقيق: محمد عبد الله عنان، ج٢، القاهرة، مكتبة الخانجي، ١٩٧٤، ص٢٣١، ٢٣٢. وعن باعث رحلته إلى الشرق يذكر المقَّري أن حاكم غرناطة الموحدي السيد أبو سعيد، استدعى ابن جبير، ذات ليلة، وكان يعمل كاتبا لديه، استدعاه ليكتب كتابًا وهو على شرابه، فمد يده إليه بكأس فأظهر الانقباض وقال ياسيدي ما شربتها قط، فقال والله لتشربن منها سبعًا، فلما رأى العزيمة شرب سبع أكؤس، فملأ له السيد الكأس من دنانير سبع مرات وصب ذلك في حجره، فحمله إلى منزله وأضمر أن يجعل كفارة شربه الحج بتلك الدنانير". المقري، أحمد بن محمد التلمساني: **نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب**، تحقيق: إحسان عباس، بيروت، ج٢، دار صادر، ١٩٦٨، ص٣٨٥.

(٥٦) ابن جبير، ابو الحسين محمد بن أحمد بن جبير الكناني، **رحلة ابن جبير**، بيروت، دار صادر، ١٩٦٤، ص٤٠.
(٥٧) **رحلة ابن جبير**، ص٥٣.
(٥٨) **رحلة ابن جبير**، ص١٦١.
(٥٩) **رحلة ابن جبير**، ص١٠٧.
(٦٠) **رحلة ابن جبير**، ص١٠٧.
(٦١) **رحلة ابن جبير**، ص١٠٧.
(٦٢) **رحلة ابن جبير**، ص١٠٨.
(٦٣) **رحلة ابن جبير**، ص١١٠.
(٦٤) **رحلة ابن جبير**، ص١١٣.
(٦٥) **رحلة ابن جبير**، ص١١٣.
(٦٦) **رحلة ابن جبير**، ص١١٣.
(٦٧) **رحلة ابن جبير**، ص١١٦.
(٦٨) **رحلة ابن جبير**، ص١٥٨.
(٦٩) **رحلة ابن جبير**، ص١٥٨.
(٧٠) **رحلة ابن جبير**، ص١٥٩.
(٧١) الأميرات السلجوقيات اللاتي يتحدث عنهن ابن جبير ينتمين إلى سلاطين سلاجقة الروم، ثم إن الأميرة السلجوقية التي يعرفها ابن جبير بأنها ابنة الأمير مسعود، ليست ابنته، بل ابنة السلطان قلج أرسلان ابن السلطان مسعود جدها، وهم من سلاطين سلاجقة الروم الذين أسسوا ملكهم في آسيا الصغرى وكانت عاصمتهم قونية، وقد امتد حكم أبيها قلج أرسلان إلى أطراف الشام والجزيرة والموصل، وقد تزوجت خاتون هذه من الأمير الأرتقي نور الدين حاكم حصن كيفا والجهات المجاورة في جهات ديار بكر شرق الأناضول، وبعد مدة فضل عليها مغنية فأهملها، ولما علم أبوها بالأمر جرد جيشا لمحاربته واسترداد الحصون التي كان منحها له هدية الزواج، فاستنصر زوجها نور الدين بالسلطان صلاح الدين الأيوبي وجاء بجيش جرار لنجدته وكادت الحرب تقع بين الفريقين، ثم تم التوصل إلى صلح يترك بموجبه الأمير نور الدين المغنية بعد سنة ويعود إلى الخاتون، وقد نفذ الشرط، لكنه مات بعدئذ، ثم إن الخليفة العباسي الناصر لدين لله، وكان قد سمع بها وبموكب حجها الفخم المار ببغداد قبل أكثر من سنتين، ولأغراض سياسية أيضا، خطبها وتزوجها وتعلق بها وبنى لها قصرا فخما، ثم ماتت الخاتون عام ٥٨٤ هـ فحزن عليها كثيرا. انظر: ابن الأثير، أبو الحسن علي بن محمد: **الكامل في التاريخ**، ج١٠، بيروت: دار الكتب العلمية، ٢٠٠٣، ص١٠١-١٠٢. وانظر أيضًا، الزيباري، محمد صالح طيب: **سلاجقة الروم في آسيا الصغرى**، الأردن، دار دجلة، ٢٠٠٧، ص١٥٢-١٥٣. وانظر كذلك: طقوس، محمد سهيل: **تاريخ سلاجقة الروم**، بيروت: دار النفائس، ٢٠٠٢، ص٢٠٠-٢٠١.
(٧٢) **رحلة ابن جبير**، ص١٦٢
(٧٣) **رحلة ابن جبير**، ص١٦٢.
(٧٤) **رحلة ابن جبير**، ص١٦٤.
(٧٥) **رحلة ابن جبير**، ص١٧٧.
(٧٦) **رحلة ابن جبير**، ص١٧٩.
(٧٧) **رحلة ابن جبير**، ص١٨٠.
(٧٨) **رحلة ابن جبير**، ص١٨٠.
(٧٩) **رحلة ابن جبير**، ص١٩٤.
(٨٠) **رحلة ابن جبير**، ص٢٠٦.
(٨١) **رحلة ابن جبير**، ص٢٠٦-٢٠٧.
(٨٢) **رحلة ابن جبير**، ص٢١٢-٢١٣.
(٨٣) **رحلة ابن جبير**، ص٢١٣.
(٨٤) **رحلة ابن جبير**، ص٢٤٨.
(٨٥) **رحلة ابن جبير**، ص٢٥٩.
(٨٦) **رحلة ابن جبير**، ص٢٧٤.
(٨٧) **رحلة ابن جبير**، ص٢٧٨-٢٧٩.
(٨٨) **رحلة ابن جبير**، ص٢٨٠.
(٨٩) **رحلة ابن جبير**، ص٢٩٨.
(٩٠) **رحلة ابن جبير**، ص٢٩٩-٣٠٠.
(٩١) **رحلة ابن جبير**، ص٢٩٩.
(٩٢) **رحلة ابن جبير**، ص٢٩٩.
(٩٣) **رحلة ابن جبير**، ص٣٠٧.
(٩٤) **رحلة ابن جبير**، ص٣١٥.
(٩٥) **رحلة ابن جبير**، ص٣١٥.
(٩٦) **رحلة ابن جبير**، ص٣١٦.
(٩٧) يفيد الاستعراض الموجز لسيرته هنا في الوقوف على مشاهداته وأوصافه وتفسيراته لما شاهد وروى. ولد البغدادي في بغداد في أسرة علم سنة (٥٥٧/ ١١٦٢)، فقد كان أبوه وعمه من المشتغلين بأفرع العلوم المختلفة لاسيما الحديث، وقد حرص أبوه على تهذيبه وتثقيفه من الصغر فانصرف للعلم يأخذ عن شيوخه حتى لم يبق ببغداد من يمكنه الأخذ عنه والاستفادة منه. ثم غادر بغداد سنة (١١٨٩/٥٨٥)، إلى الموصل وكان سنه يومها ثمان وعشرون سنه، ولم يُعَدّ البغدادي إلى بغداد إلى بعد خمس وأربعين عامًا. وفي هذه السنوات التي تناهز النصف قرن تنقل البغدادي متعلمًا وعالمًا ومدرسًا، في عدد من مدن الإسلام، وكانت ميزته الكبرى في كل مكان ينزله البحث عن كبار عصره من العلماء في كل فن ليطارحهم ويأخذ عنهم. واستنادًا إلى سيرته الضافية التي أثبتها معاصره ابن أبي أصيبعة، في كتابه "**عيون الأنباء في طبقات الأطباء**". انظر: أبي أصيبعة، أبو العباس أحمد بن القاسم: **عيون الأنباء في طبقات الأطباء**، بيروت: (د.ت) دار الثقافة، ج٢ ص٣٣٠-٣٥٠.
(٩٨) انظر قائمة بأسماء كتبه في: **عيون الأنباء في طبقات الأطباء**، ص٣٤٦-٣٤٧.
(٩٩) انظر: الصلابي، علي محمد: **الأيوبيون بعد صلاح الدين**، بيروت: المكتبة العصرية، ٢٠٠٩، ص٢٠-٢١.
(١٠٠) ينقل السيوطي أخبار سنة القحط والبلاء وأكل الناس بعضهم بعضًا عن الذهبي والعماد الكاتب الأصبهاني وسبط بن الجوزي وغيرهم: السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن: **حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة**، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم: ج٢، القاهرة، دار إحياء الكتب العربية ١٩٦٨، ص٢٩٢-٢٩٣.
(١٠١) البغدادي، عبد اللطيف، **رحلة عبد اللطيف البغدادي**، إعداد، عبد الرحمن عبد الله الشيخ، ط٢، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٨. ص١٣٣.
(١٠٢) **رحلة عبد اللطيف البغدادي**، ص١٣٣. (هذا الهامش يغطي الاقتباسات السابقة قبله)
(١٠٣) **رحلة عبد اللطيف البغدادي**، ص١٣٣-١٣٤.
(١٠٤) **رحلة عبد اللطيف البغدادي**، ص١٣٤.
(١٠٥) **رحلة عبد اللطيف البغدادي**، ص١٣٥.
(١٠٦) **رحلة عبد اللطيف البغدادي**، ص١٣٦.
(١٠٧) **رحلة عبد اللطيف البغدادي**، ص١٣٦.
(١٠٨) **رحلة عبد اللطيف البغدادي**، ص١٣٦.
(١٠٩) **رحلة عبد اللطيف البغدادي**، ص١٤٠.
(١١٠) **رحلة عبد اللطيف البغدادي**، ص١٤٠.
(١١١) **رحلة عبد اللطيف البغدادي**، ص١٣٦.
(١١٢) **رحلة عبد اللطيف البغدادي**، ص١٤٣.
(١١٣) **رحلة عبد اللطيف البغدادي**، ص١٣٢.

(١١٤) للحصول على سيرة ضافية ومفصلة لابن منقذ، انظر: رمضان، أحمد رمضان: **الرحلة والرحَّالة المسلمون**، جدة: دار البيان العربي للطباعة والنشر، ص٢٥١-٢٦٤.

(١١٥) لمتابعة أهمية الكتاب وترجماته إلى اللغات الأوروبية، انظر: عوض، محمد مؤنس: **الجغرافيون والرحَّالة المسلمون في بلاد الشام زمن الحروب الصليبية**، القاهرة: دار عين للدراسات والبحوث الاجتماعية، ١٩٩٥، ص٢٥٩-٢٦٠.

(١١٦) **الجغرافيون والرحَّالة المسلمون**، ص٢٤٥-٢٥٦.

(١١٧) ابن منقذ، أسامة بن مرشد، **كتاب الاعتبار**، تحقيق: فيليب حتى، القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية، (د.ت) ص١٢٢.

(١١٨) **كتاب الاعتبار**، ص١٢٥-١٢٦.

(١١٩) **كتاب الاعتبار**، ص١٢٤-١٢٥.

(١٢٠) **كتاب الاعتبار**، ص١٢٥.

(١٢١) **كتاب الاعتبار**، ص١٢٧-١٢٨

(١٢٢) **كتاب الاعتبار**، ص١٢٩

(١٢٣) **كتاب الاعتبار**، ص١٤٩-١٥٠

(١٢٤) **كتاب الاعتبار**، ص١٢٥، ١٢٦

(١٢٥) **كتاب الاعتبار**، ص١٣٠. وعن قلعة جعبر يقول ياقوت الحموي أنها تقع على الفرات بين بالس والرقة قرب صفين، وكانت تسمى قديمًا دوسر، فملكها رجل أعمى من بني قشير يسمى جعبر بن مالك فعرفت به. **معجم البلدان**، ج٢، ص١٤٢.

(١٢٦) **كتاب الاعتبار**، ص١٣٠.

(١٢٧) **كتاب الاعتبار**، ص١٣٥.

(١٢٨) **كتاب الاعتبار**، ص١٣٠.

(١٢٩) **كتاب الاعتبار**، ص١٣٦.

(١٣٠) **كتاب الاعتبار**، ص١٣٦-١٣٧.

(١٣١) **كتاب الاعتبار**، ص١٣٧.

(١٣٢) **كتاب الاعتبار**، ص١٣٧.

(١٣٣) **كتاب الاعتبار**، ص١٢٥.